

روحيه جارودي

الإرهاب الغربي

1

تعريب :

د. داليا الطوخي

د. ناهد عبد الحميد

د. سامي مندور

مكتبة الشروق الدولية

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلا ند - روكسى القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

روحیه جارودی

الإرهاب الغربی

الجزء الأول

ترجمة: د. داليا الطوخی

د. ناهد عبد الحمید

د. سامی مندور

مکبة الشرق الأوسط
مکبة الشرق الأوسط

تقديم

الكتاب الذى بين يدى القارئ هو آخر ماكتبه روجيه جارودى ، وقد يكون من آخر مايكتبه . . فهو فى العقد العاشر من عمره . .

وعندما نقرأ الكتاب ، نحس من كهل جاوز التسعين ثورة الشباب . .

- الثورة على النظام الذى خلق الفجوة المتزايدة بين الذين يملكون والذين لا يملكون . .

- الثورة على الغرب الذى نهب ثروات العالم لمدة خمسة قرون . . والذى استباح ذلك النهب على أسس متعددة ، وقد تكون متناقضة : أسطورة الشعب المختار . . اليهود ، ثم الكنيسة الكاثوليكية فى روما . . ثم البروتستانت فى بريطانيا والولايات المتحدة . . رأسمالية استعمارية . . ليبرالية . . البقاء فيها للأقوى . . حيث إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان . .

- الثورة على الخنوع للظلم والسلبية . . .

- الثورة على فصل العمل عن الإيمان . . .

- وأخيرا الثورة على المؤسسات الرسمية للأديان الكتابية الثلاثة . . .

وكد جارودى فى بيئة إلحادية . . اقتنع بالفكر الماركسى . . ثم عرف المسيح فهام فى حبه . . ثم عرف محمداً ﷺ فأكبر فيه اعترافه برسالة المسيح . . . ورسالات الأنبياء الذين سبقوه . . . وكتبهم . . ، ورأى أنه عولم الدين لصالح البشرية كلها ، ومكنها بذلك من وضع أسس للسلام والازدهار الإنسانى ، آتت أكلها حينما حكم المسلمون الأندلس بضعة قرون ، عاش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون جميعا وأبدعوا فى كل المجالات ، فاحترم فيه إنشاء دولة العدل والعلم والعمل والإنسانية .

اعتنق جارودى الماركسية ثم المسيحية ثم الإسلام ، ولم يتنكر لأى منها ، وهو فى فهمه للثلاثة مخالف لفهم التيار الرئيسى فى كل منها ، واحترم حكمة الهند والصين ، وحضارة الهنود الحمر فى أمريكا .

يرى جارودى أن المؤسسات الرسمية للأديان الكتابية الثلاثة لم تقم بعملها كما يجب . . ودليله على ذلك ما نعاصره الآن فى بداية القرن الواحد والعشرين، وبعد أن نال القرن العشرون جائزة أكثر القرون دموية فى تاريخ البشرية، وبعد خمسة قرون من نهب الغرب للشرق واستعباده واستئصاله لما أمكن استئصاله .

- يعيب على المؤسسة اليهودية أسطورة الشعب المختار، بما جلبته من عنصرية وإنكار الآخر، وأسطورة أرض الميعاد التى سببت - وماتزال - مأساة الشرق الأوسط على مدى نصف قرن . .

ويعيب على المؤسسة المسيحية انقيادها لبولس الرسول وليس لعيسى عليه السلام، وإنها بمحاولتها تشبيه عيسى بـ داوود - لدرجة أنها ابتدعت لعيسى نسباً من يوسف النجار إلى داوود - وقعت فى أسر العهد القديم بأساطيره . . ويرى فى مجمع نيقية ميلاد لاهوت السيطرة المسيحية اليهودية الرومانية .

ويعيب على المؤسسة الإسلامية قراءتها الجامدة للنصوص - وبكلماته : قراءة النصوص بعيون ميتة - وتمسكها بالقشور دون الجوهر .

ويعيب على المؤسستين الأخيرتين فصل العمل عن الإيمان، وعلى المؤسسات الثلاث تكريس الظلم والاستبداد فى العالم، واعتقاد كل منهما أنها تحتكر الحقيقة المطلقة .

يدعو جارودى إلى العمل الخلاق للخروج من كل هذا :

اعمل حتى تساعد الله فيك . . اعمل حتى تحقق الله فيك . .

عادل المعلم

يناير ٢٠٠٤م

تمهيد

كتبت هذا الكتاب بالكامل قبل الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ومنذ ذلك الحين، لم يكن لى أن أغير فيه كلمة واحدة لأنه يتيح فهم مدلول الحدث فى إطار الثلاثين قرناً من الزمان التى كونت الغرب، بتناقضاته الداخلية وتقدمه الهش الذى يعكس -بدلالاته المندرة رغم رخويتها- انقلاباً ممكناً فى مساره المتصاعد.

إن مركز التجارة العالمى والپتاجون يعتبران أهدافاً رمزية لخمسين عاماً من الهيمنة الأمريكية.

وقد أراد الأمريكيون منذ نهاية البربرية القديمة بهزيمة هتلر، أن يقدموا دليلاً واضحاً على ميلاد قوة تدمير جديدة لردع أى منافس محتمل ينازعهم هذه الهيمنة.

ولذلك أعطى الرئيس ترومان أوامره فى السادس من أغسطس عام ١٩٤٥م بإلقاء قنبلة ذرية بقوة ٢٥٠٠ طن من المتفجرات التقليدية على هيروشيما، مما أدى لمقتل ثمانين ألف شخص، بالإضافة إلى مائة ألف ضحية آخرين من مصابين بالإشعاع إلى معرضين للموت بالسرطان أو اللوكيميا (سرطان الدم)؛ لأن هذه القنبلة كانت تنتزع اللحم على بُعد أربعة كيلو مترات من سقوطها.

ثم ألقيت قنبلة أخرى من نفس النوع فى التاسع من أغسطس عام ١٩٤٥م على مدينة ناجازاكي، مما رفع عدد الضحايا بعد قنبلة هيروشيما إلى مائتى ألف. ولم تكن هذه الجرائم لتقع دون أن تثير استياءً عالمياً.

مهدت هيروشيما إذن لخمسين عاماً من الهيمنة الأمريكية الشديدة، من

جواتيمالا إلى فيتنام، ومن نيكاراغوا إلى العراق، ومن يوجوسلافيا إلى أفغانستان، بشتى أنواع القصف «الإنسانى» والتدخلات «الديموقراطية» فى شئون الشعوب الذين تختارهم واشنطن.

وقد أعلن البيت الأبيض جهاراً عشية الهجوم على مركز التجارة العالمى والبتاجون رؤيته: إذ الأمر يتعلق بمرحلة جديدة من حرب أفغانستان التى تكونت فيها شبكة إرهابية من قراصنة الجو من أفغان ومسلمين من كل البلدان، بما فيها المهاجرون فى أوروبا وأمريكا، وقد قرر هؤلاء جميعاً شن «حرب مقدسة» على أراضى الولايات المتحدة. ولذلك استولوا على أربع طائرات وحولوا مسارها واستخدموها كصواريخ قرصنة قادرة على تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك والبتاجون فى واشنطن.

وتبرر هذه الرؤية للولايات المتحدة المطاردة المستمرة لـ «بن لادن» وتكثيف القصف الجوى على أفغانستان. كما تسمح لها كذلك بتكريس حقدها على الإسلام بشكل عام. بخلطه خلطاً متعمداً مع «الحركات الإسلامية».

وبذلك وجد الأمريكيون هدفاً جديداً واعتبروا بدورهم الإسلام «إمبراطورية الشر» بعد انهيار الاتحاد السوفييتى الذى اعتبره رونالد ريجان سابقاً «إمبراطورية الشر». ويعطى انتشار الإسلام فى العالم أجمع - مثل الشيوعية السابقة - ذريعة التدخل فى كل مكان فى العالم، ولا يبرر ذلك التدخل فى الشرق الأوسط فحسب، ولكن فى آسيا وأفريقيا كذلك، كما فعلته الولايات المتحدة فى إندونيسيا عندما موّلت انقلاب سوهارتو الذى جاء على أنقاض ٨٠٠٠٠٠ ضحية.

ولكن ذريعة «ابن لادن» هذه تعتبر واهية تماماً - حتى من الناحية التقنية - كما ظهر من خلال نقاش متعمق دار بين عدد كبير من الطيارين المدنيين والعسكريين الأمريكين، وأوضح الآتى:

١- أن عملية بهذا الحجم وبهذه الدقة لا يمكن أن يقوم بها إلا طيارون

محترفون مؤهلون تأهيلاً عالياً، ليصيبوا بدقة هدفاً يبدو على ارتفاع طائرات الركاب الضخمة كعامود رفيع!

٢- أن أى عملية ناجحة كهذه، تقتضى معرفة تامة باللوائح والمحظورات والشفرات السرية فى سماء يُراقب الأمن العسكرى والمخابرات المركزية الأمريكية كل متر مربع فيها.

٣- لم تتدخل الطائرات العسكرية -التي فى حالة تأهب دائم للإقلاع المباشر للقضاء على أى طائرة مشبوهة- بأى شكل.

٤- تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية فى مجال الأبحاث التى قام بها الأمريكيون لمكافحة خطف الطائرات، بنظام يتيح شل حركة الطيران فى الطائرة المستهدفة والتحكم فيها من بُعد بغرض تدميرها أو إجبارها على الهبوط.

ليس هناك حاجة إذن لأى طيار أو قرصان جو.

وكما يقول التقرير، فقد كان كل شىء مؤقتاً ومخططاً عن طريق التحكم من بعد.

والخلاصة التى وصل إليها الطيارون واضحة تماماً: فكل هذا يدل على وجود مؤامرة على مستوى عال. نحن أمام قضية خيانة عظمى، أمام مؤامرة.

وليست هذه هى المرة الأولى التى تنظم المخابرات المركزية الأمريكية وعسكريون فى مناصب عليا ومسؤولون سياسيون، مثل هذه الإثارة لإجبار الشعب على القبول بفكرة ضرورة القيام بحرب إبادة.

ففى كوبا على سبيل المثال ، وبعد فشل الإنزال فى خليج الخنازير، اقترحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA وقادة الجيش -الذين اعتبروا سياسة كيندى تجاه كوبا مائعة- على الرئيس تنظيم عمليات إثارة فى جوانتامو: مثل المظاهرات فى الشوارع وعمليات التخريب، وإغراق سفينة حربية أمريكية (وهى نفس الذريعة التى تذرعت بها لتعلن الحرب على إسبانيا عام ١٨٩٨م).

إذن ليست هذه هي المرة الأولى، ولكن العملية احتوت هذه المرة عناصر جديدة: فلكى تحدث مفاجأة كبيرة، كان لا بد أن يتحرك المتآمرون «من الداخل» وأن تُخفى المؤامرة الداخلية وتنسب إلى «إرهابيين مسلمين» لجذب الرأى العام. ويعتبر هذا الجزء من المهمة سهلاً، نظراً لأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أقامت صلات وثيقة مع جماعات متطرفة متأسلمة منذ الثمانينيات، لتنظيم «الحرب المقدسة» ضد إمبراطورية الشر (الاتحاد السوفييتي).

وعلى هذا كانت الولايات المتحدة تساند معركة «بن لادن» ضد «عدو الله»: الاتحاد السوفييتي، وكانت قواته حلفاءها. وكذلك قامت بعقد الروابط مع الطالبان.

ثم قام المتآمرون الأمريكيون بعمل المونتاج: حيث تقوم مناورة مذهلة لتؤكد الخطر الذى تواجهه الولايات المتحدة وضرورة بذل كل ما فى الوسع فى حرب عالمية، هجومية شديدة، كتلك التى خاضتها ضد الاتحاد السوفييتي سابقاً.

ولهذا فقد أقنعت الطالبان، تحت نفس الحجج الدينية التى استخدمتها فى مواجهة الاتحاد السوفييتي، بالدخول فى حرب ضد عدو آخر لله: الولايات المتحدة.

وكان المتحرون على أهبة الاستعداد لبذل حياتهم ليوجهوا ضربة قاسية ضد هذا العدو الجديد.

وكانت هى المعركة نفسها بالنسبة لهم .

ولم يكن ليطلب من هؤلاء المتحربين أن «يقودوا الطائرات»؛ لأن ذلك كان غير مجدى، خاصة أن هذه الطائرات كان يتم توجيهها عن بُعد.

ويقول تقرير الطيارين:

«وبمجرد أن دخل الإسلاميون المختارون الطائرة، تمت الحيلة حيث اعتقدوا

فى عمليتهم دون أن يشكوا فى أنهم يقومون بدور الممثلين الصامتين فى عملية أخرى. هى عملية المتآمرين الذين كان همهم الرئيسى أن يُعثر على آثار الإسلاميين. وقد أضافت شرطة الـ إف.بى. آى F.B.I أدلة أخرى فى الأنقاض، منها كتب تعليم الطيران باللغة العربية، ونسخ مختلفة من القرآن الكريم، وكذلك جواز سفر، وعلى وسائل الإعلام أن تقوم بالباقى.

ناسب الظرف الاقتصادى والعسكرى والسياسى تماماً القيام بانقلاب من هذا النوع.

فعمليات تسريح العمال والموظفين تتكاثر ومقاييس النشاط الاقتصادى فى أضعف مستوى لها منذ عام ١٩٦٢م.

هذا إلى جانب خفض البنك الفيدرالى لقيمة الفائدة بشكل مستمر، لتسع مرات منذ بداية عام ٢٠٠٠م لتشجيع الاستثمار، كما أن خفض الضرائب لتشجيع الاستهلاك لم يحد من هذا التراجع. بالإضافة إلى أن احتياطى البنوك يعتبر فى أدنى مستوياته منذ ثلاثة عشر عاماً.

وتزايد قلق القوى الحقيقية العامة فى الولايات المتحدة من جماعات الضغط الصناعية والمالية ضد هذه السياسة: حيث كان البنوك ورجال البترول وأصحاب مصانع الطائرات، وصناعة التسليح بشكل عام، واللوبي العسكرى بوجه خاص، يريدون توجهاً جديداً فى السياسة الأمريكية.

ولم ينس «اللوبي العسكرى الصناعى» أن الحرب الكورية - بعد الازدهار المالى الناتج عن الحرب العالمية الثانية- قد أحدثت «ازدهاراً اقتصادياً» جنب الولايات المتحدة أول أزمة لها بعد الحرب.

إن حرباً واحدة من هذا النوع من الضخامة، هى الكفيلة إذن بتخطى الصعاب الحالية.

وكان أن ألزم المتآمرون الرئيس بوش الابن باتخاذ السياسة الهجومية التى كان عليها الرئيس السابق رونالد ريجان.

وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير، وغير بوش لغته، وأصدر أذارا لكل من العراق وإيران وكوريا الشمالية.

تحدث فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠١م عن «حرب صليبية حقيقية» مستوحيا السيناريو الذى قدمه «هنتنجتون - Huntington» فى كتابه: «صدام الحضارات» الذى يرى فيه أن التحالف الكونفوشيوسى الإسلامى، والذى يعنى فى لغة الكاتب إيران والصين كأعداء رئيسيين، يهدد الحضارة الغربية اليهودية المسيحية.

وكذلك قابلت الولايات المتحدة بشكل متواصل مقاومة كبيرة، وحلفاء قليلين فى مشروع العولمة الذى تقوده، تلك العولمة التى تعنى استعماراً ممتداً على المستوى العالمى ولصالح مستعمر واحد. وهذا ما جعل صحفياً إنجليزياً يُدعى «والابى - Wallaby» لأن يقول:

«إن نهاية الاستعمار شكلت فراغاً لا يمكن أن تملأه إلا إحدى الإمبراطوريات».

وقد عبّرت حركة مناهضة العولمة عن نفسها بقوة فى مظاهرات «سياتل - Seattle» - على سبيل المثال - التى نجح قائدها الفلاح الفرنسى «جوزيه بوفيه - José Bové» فى ضم مزارعين أمريكيين، لا سيما أن ذلك يعد مدهشاً؛ لأن مصالح الطرفين ليست بعيدة عن التناقضات.

وفى جنوة، رأى المؤيدون القليلون لمنظمة التجارة العالمية (WTO) أن يعقدوا جلسة على إحدى السفن ليهربوا من غضب الناس، وتقرر أن يعقد مؤتمر «ديفوس» القادم فى نيويورك!

ولم تقدم سياسية بوش الابن أى حل أمام هذه الصعوبات، بعد أن تحدث خلال حملته الانتخابية وقراراته الأولى عن «الدرع المضاد للصواريخ» وعن «التخلى» بعض الشئ عن الشرق الأوسط.

وقد ظهرت عُزلة الولايات المتحدة بشكل كبير فى مؤتمر دربان بجنوب أفريقيا حيث وضعت موضع اتهام شديد مثلها مثل إسرائيل، حيث ذكر المؤتمر أن إسرائيل دولة عنصرية، كما أكدت ذلك الجمعية العامة للأمم المتحدة من قبل، وقد ألغى هذا القرار بعد ضغوط من الولايات المتحدة.

وعلاوة على ذلك، فقد أوضحت الوفود الأفريقية أن القانون الدولي أقرّ منذ قضية القيادة النازيين في «نورمبرج - Nuremberg» أن «الجرائم ضد الإنسانية» لا تسقط بالتقادم، ولهذا فإن الأفارقة الذين كانوا ضحية لأبشع جريمة ضد الإنسانية «وهي الرق»، لهم حق التعويض من جانب الذين مارسوا ذلك ضدهم، وهي دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.

الخلاصة

قدم بوش هذه السياسة أولاً كـ «حرب صليبية» يجب أن تجمع خلف الولايات المتحدة كل حكام الدول الأوروبية الاستعمارية القديمة.

ولكن هذه «الحملة الصليبية» تعوق التوسع إلى البلاد الإسلامية التي تمتلك احتياطات نفطية ضخمة تحتاجها الولايات المتحدة.

ولهذا غير بوش مفردات كلماته وجعل مشروع التوسع الأمريكى يأخذ اسم «الحرب ضد الإرهاب»، لكى تعتبر قمع الحكومات للمعارضة الشعبية، نوعاً من الحرب ضد الإرهاب.

بالإضافة إلى أن ذلك يتيح وصف الحكومات التي ترفض الدخول في هذا التحالف بـ «الضلوع في الإرهاب».

وقد أعطى تونى بلير وهو «أول الخاضعين» إشارة البدء بسن القوانين القمعية «المضادة للإرهاب». ويقول بلير المضاد للإرهاب: إننا نستطيع أن نعتقل أى أجنبى بناء على طلب بسيط من أى وزير، ولن يكون من حق هذا الأجنبى أن يعرف عناصر الاتهام الموجه إليه. وتبيح المادة ١٠٩ من القانون لكل الوزراء أن يتجاوزوا القوانين دون الرجوع إلى البرلمان(*) .

(*) أعلن بلير فى الأسبوع الأول من عام ٢٠٠٤م، بعد زيارة قصيرة للاستجمام فى مصر، أعلن فور مغادرته «جرثومة التطرف الإسلامى تهدد السلام العالمى».

وبذلك تم محو ثمانمائة عام من تراث المقاومة ضد الاستبداد الناجم عن الاعتداء على القوانين التى تكفل الحرية الفردية، خلال بعض ساعات.

واقترفى التابعون الأوروبيون الآخرون أثر هذا النموذج، مكملين بذلك انتهاك واستلاب السيادة التى أقرتها اتفاقية ماسترخت التى جعلت العدالة فى أوروبا متمركزة فى «المحكمة الأوروبية» بعد تركز الشرطة فى يد البوليس الأوروبى.

وقد وضع مؤتمر «فقهاء القانون الأوروبيون» بداية عام ٢٠٠٢م المنعقد فى نورمبرج الخطوط العريضة لهذا المشروع، الذى يقضى بأن أى مواطن أوروبى يمكن أن يُوقف أو يُحاكم بمقتضى قوانين مختلفة عن قوانين بلده.

ومرة ثانية، بدا واضحاً أن أوروبا- وفقاً لتعبير معاهدة ماسترخت نفسها- لا يمكن أن تكون إلا الأساس الأوروبى للحلف الأطلسى، ذلك أن المادة ٥ من قانون إنشاء معاهدة حلف شمال الأطلسى (NATO) تستلِب استقلالنا العسكرى، وتجعلنا مرتبطين بكل الاعتداءات الأمريكية: من الخليج إلى يوجوسلافيا ومن الصومال إلى أفغانستان.

أما أوامر بوش التى تفرض التحالف المسمى «الحرب ضد الإرهاب» فتؤدى إلى تبعية متزايدة للسياسة الأمريكية.

وأطلق بوش بعد ذلك تهديدات ضد الدول التى رفضت الانضواء تحت سياسة الهيمنة العالمية مثل العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها دولاً «إرهابية».

ثم اجتاز خطوة أخرى بعد ذلك بأشهر فى هذه الدعاية المختلة التى تهدد عديداً من هذه الدول بالقصف الذرى.

ولكى نكافح هذه البربرية الجديدة، يجدر أن نأخذ فى اعتبارنا «العدو الرئيسى»؛ لأننا نجد أنفسنا من نواح عدة فى وضع مشابه لوضع الاحتلال

الألماني لفرنسا، الذى واجهت فيه الفروق بين «اليمين» و«اليسار» - والتي كان لها مدلول عميق فى القرنين التاسع عشر والعشرين - شرخًا جديدًا: التعاون لمقاومة الاحتلال، أم مقاومة التعاون، فيبقى الاحتلال؟.

ومثل الأمس تمامًا، ترتبط معارك المقاومة ارتباطًا وثيقًا بالصراع ضد تبعية اقتصادنا وسياستنا لإرادة المحتل، ولا يمكن لكفاح كهذا ضد البطالة ومظاهر عدم المساواة، والمركزية والإفلاسات، أن يؤتى ثماره إلا إذا توازى ذلك مع الكفاح ضد المؤسسات والقوى الاقتصادية الأمريكية.

وليست أوروبا إلا أداة لهذه الهيمنة الأمريكية، فهى اليوم أوروبا الأمريكية.

يليق بنا إذن أن نقطع كل علاقة مع المؤسسات الدولية التى تعتبر أدوات للهيمنة الأمريكية. وهذه الأدوات هى: منظمة حلف شمال الأطلسى، صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى^(*)، والمحكمة الأوروبية... إلخ.

إننا نرفض العزلة، مع التحرر من كل ما يمنعنا من إقامة علاقات خصبة ومستقلة مع دول العالم الثالث، المهتدة اليوم مثلنا بعولمة «إمبريالية» تقدم شكلاً جديداً من أشكال الاستعمار الذى يخدم بلداً أصلياً واحداً، وبدلاً من تلك العولمة الأمريكية، نحن ندعو إلى اشتراك مختلف الحضارات والثقافات على أسس من المساواة.

وهكذا يتضح مدلول الحادى عشر من سبتمبر: فهو ليس تعبيراً عن المواجهة بين الإسلام والمسيحية ولا بين الشرق والغرب. ولكن هذا ما يريد المتآمرون الأمريكيون أن يقودوا القرن الواحد والعشرين إليه وفقاً لسيناريو هنتنجتون.

وعلى الغرب الرأسمالى الاستعمارى الذى يعانى من تفجر تناقضات داخلية أن يبحث عن مناهج يمكن أن تضمن له البقاء.

(*) عقب الأزمة المالية التى عصفت بجنوب شرق آسيا أواخر القرن الماضى، رفض رئيس الوزراء المالىزى خطة الصندوق الدولى رفضاً جازماً، وكانت مالىزيا أول دولة تخرج من الأزمة.

مقدمة

مرت حياتى بانشقاقات لا آسف على أى منها؛ لأنها ليست إنكاراً لما سبق ولكنها تجاوز لحد ما.

ولقد نشأت فى أسرتى على إلحاد جردنى من كل المفاهيم التى تخص الله، حجبني من كل تدين قبلى يدعى الاحتفاظ لنفسه باحتكار المطلق ويفرض علينا أساطيره وشعائره وعقائده، كما لو كانت متسامية مثل اسطورة شعب الله المختار.

وتلك مفاهيم العقل المغلق الذى لا يعى بدهياته وحدوده. وعندما أدركت أن هذه الحدود كانت هى حدود الثقافة والفلسفة التى تعلمتها فى المدرسة، أحسست بالحاجة إلى الهروب من السجن العلموى^(١). وعندما قابلت مصادفة كيركجارد الپروتستانتى، أدركت أن هناك - بعيداً عن منطقنا الضعيف وأخلاقنا التافهة - توضحيات مشابهة لتضحية إبراهيم - عليه السلام - والتى تبدو فى ظاهرها غير عاقلة؛ لأنها انقطعت عن كل المعايير القبلية.

وبذلك استطعت أن أسد ثغرة أخرى، ربما تكون أكثر الثغرات انفتاحاً للأمل فى تاريخ البشر والآلهة: وهى المسيح وبوجوده، لم فلم يعد الانشقاق، والتفوق على الذات ثم الارتقاء، مُلوَّثاً بنظرة خارجية محددة ومحدودة.

لأن من كان قبله كانوا يدعون إلى الله خارج أنفسنا (أى فوقنا، كما كان

(١) العلموية: مذهب يقرر الاكتفاء بالعلم من حيث قدرته على بحث المسائل الدائرة على المعرفة

البشرية - المترجم.

يعلمه لنا علم الكونيات البدائي عن الأرض المستوية التى نصعد منها إلى السماء كما نزل إلى الجحيم).

وهذا الإله هو ملك له قدرة خارقة، تقرر من أعلى مصير البشر فى الأرض وإمبراطورياتهم، ويشكله على طريقة الصانع الذى يصنع آنية أو تمثالاً من الصلصال.

لقد قاطع عيسى - عليه السلام - هذا «القانون» المسمى بالإلهى، الذى انغلق حتى ذلك الوقت على الإنسانية المسكينة، التى حكم عليها فقط أن تقبل القرارات التى تأتى «من أعلى»، فاخترق كل النواهى والأوامر وأعطى نموذج المسؤولية والحب معاً، فاختر أن يعطى نفسه أولاً لأشد الناس فقراً ثم للمعوزين لا لكى «يساعدهم»، وليس بأبوية رجل غنى يميل إلى البؤس، ولكن بأن يعيش ويموت معهم ومثلهم.

وكان هذا الموت أوضح دليل على قيامتنا: كرفض حياة لا هدف لها إلا إرضاء رغباتنا الحقيرة وطموحاتنا التافهة، بالخضوع أولاً لإرادة «الكبار»، الذين يوزعون دائماً الثروة والأمجاد على الرعايا الطيعين.

لقد أصبحنا مع يسوع المحرّر بشراً قادرين على تحمل المسؤولية، وعلى الحب. وما سميناه حتى ذلك الوقت إلهاً لم يعد كائنًا أو معلماً، ولكنه دعوة، وهذه الدعوة إلى العمل الخلاق والمحرّر تعتبر تدفقاً خالصاً لتعبئة من أجل حياة، وامتلاء بالحياة، تتجاوز كل الأهداف التى كنا نعتقد أنها وحدها الممكنة، والإيمان هو إجابة هذه الدعوة بلا تحفظ، والقوة التى مُنِحَتْ إياها لنشارك فى هذا الارتقاء.

وليس هذا أمراً يعطيه سيد لأحد العبيد، ولكنه نموذج مطرد يعطيه أخ لأخيه لكى يواصل وينمى عمل الأب.

ولم يبق لنا إلا أن نختار الطريق. وهو بالنسبة لى طريق «الكفاح». ولأن

عيسى كان فى القلب، فقد أصبحت «ماركسيًا»، أعتبر أن «ماركس» قد أعد لقرن كامل قوانين التطور التى قد تتيح للإنسان، ليس الوصول إلى «نهاية التاريخ»، ولكن الخروج من ما قبل التاريخ، حيث كان شقاء وتبعية الأكثرية شرطاً لثراء وقوة البعض.

ولم آسف على هذا الاختيار، لأننى ظلت أعتقد أنه بدون مناهج التحليل التى استخدمها ماركس فى عصره، لن يكون ممكناً أن نفهم تصدع العالم: فعندما اتحد الاستعمار منذ الحرب الأخيرة داخل تحالف المستعمرين القدامى والجدد، تزايدت الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون.

ولكى اختار مرة ثانية معسكرى ضد أيديولوجية المهيمنين، اعتنقت الإسلام الذى كان له تأثير ثقافى واضح، لا لكى أشاطر المسلمين حينهم للماضى وتقليدهم الغرب، ولكن لكى أنحاز إلى نموذج العقائد الداعية إلى التحرير، وقد ولدت هذه العقائد فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، حيث تموت الكثرة الغالبة من البؤس على إيقاع هيروشيما كل ثلاثة أيام. ذلك أن نموذج التنمية الغربية الذى تلهث وراءه دول العالم الثالث، يساعد دائماً على ازدياد تخلفهم المرتبط بتبعيتهم.

وليست وحدة العالم هى الوحدة الإمبريالية الناجمة عن عولمة منافقة، ولكنها الوحدة المناسبة لكل الشعوب وكل المجتمعات. وتلك الوحدة هى البنيان الذى يمكن أن يكون وحده بنيان الله، ويصبح هدفنا الأول كبشر ذوى عقيدة أن نكون نحن البناة.

إن الإفلاس المؤقت لأمل المبعدين الكبير، وهو الاشتراكية، كان بسبب من خانوا فكر ماركس، فلم يفهموا أن أى ثورة حقيقية تحتاج إلى ما فوق الوجود المادى، أكثر من حاجتها إلى الجبرية تلك التى يسميها المتدروشون (المتخاذلون وليس الصوفية الحقيقيون) «العناية الإلهية»، ويسميها رواد الفكر الأوحى «اليد الخفية» عند آدم سميث، و«التقدم» عند هواة الحاسوب، أو «المادية الجدلية» عند من أفقروا ماركسية ماركس.

هذا هو تاريخ انشقاقاتى الفكرية التى يسميها معتنقو الفكر الأوحى بتاريخ تغيراتى .

ولن يوقف ذلك إلا موتى . وسأستقبله بنفس الحماسة لأن الإنسان لا يحيا إلا ليموت : ويموت ليحيا حياة اليقين الذى يبعث السعادة ويضىء هذا الموت . ذلك اليقين الذى يعتبره آخرون استمراراً ونوراً .

أ- سفينة «الأرض» التى تغرق

واصلت أشكال عدم المساواة زيادتها بعد خمسة قرون من الاستعمار الغربى وخمسين عاماً من الهيمنة الإمبريالية الأمريكية : فكثر الجوعى والعاطلون والمستبعدون ، الذين يوجدون بكثافة فى قاع يسار السفينة ، بينما ينتشر على ميمتها بعض بيوت اللهو والأجنحة الملوكية التى تبحث فى الإنترنت عن تغيرات البورصات العالمية للمضاربة .

وعلى هذا انقسم العالم إلى شمال وجنوب : وفى كل مكان هناك من يملكون ومن لا يملكون .

كيف نتجنب الفرق؟

أهدف من وراء هذا الكتاب إلى إسماع العقول والقلوب لكى نطرح سوياً المشكلة ، ونحاول أن نصل إلى حل لها .

فالحل ليس اقتصادياً فحسب ، رغم أن الهم الأول هو تخفيض أشكال عدم المساواة ، والحل ليس سياسياً فحسب ، رغم أن إمبراطورية العالم يسيطر عليها اليوم من جمعوا نصف ثروة العالم على أنقاض أوروبا المستنزفة عام ١٩٤٥م ، والتابعة فى بداية الألفية الثالثة ، بعدما أتوا فى حربين للنجدة والنصرة ، عامى ١٩١٧ و ١٩٤٥م .

ولكن الحل ينبغى أن يكون أكثر عمقاً ، حيث إن السفينة لا تهتدى إلى طريقها بدون ربان ، ولا بقائد سكير أنهكه الفساد . وتظل المشكلة الرئيسية إذن

هى غياب الغاية الإنسانية، ولهذا فإن المشكلة التى ستتيح لنا إذا وصلنا إلى حل لها حل المشاكل الأخرى، هى تلك الغاية.

وهنا يكمن سر النجاة؛ لأن أدياننا (المدينة، أو اللادينية) التى نتخذها وسيلة والتى نعلمها فى المدارس ووسائل الإعلام لا تطرح السؤال المتعلق بـ «الغاية» (لماذا؟).

ولهذا سوف نهلك.

ولن تجد هذه المسألة حلاً فى أى حاسب آلى كأداة تمدنا بالوسائل، ولكنها ستجد الحل فى قلوب الناس وعقولهم.

إن الحل هو استدعاء الإيمان الذى يمكن أن تسميه إلهاً أو أى اسم آخر، ومهما قلت عن دينك: إنى مسيحى أو مسلم أو بلا إله، فإن المهم هو ما يُحدثه هذا الإيمان فى حياتك.

لأن الدين ليس إلا طريقة فى التفكير والاعتقاد، ولكن الإيمان هو طريقة فى الحياة(*).

فلنبحث سوياً إذن.

ب- معركة ضد الليل؟؟

إن الهدف الأساسى والأوحد لهذه الوصية الغامضة غير المنظمة، والتى تمتلئ بالتكرار الملح ولكنها تفيض بالأمل، وتختلط فيها القصائد والتحليلات الاجتماعية والتأملات حول الله، أو الغايات الأخيرة والكلام المتكرر والمتواصل حول مذابح المجاعة التى تكلف العالم ما يوازى ضحايا هيروشيما «كل ثلاثة أيام»، هو توضيح أن هذا الصدع فى العالم كان نتيجة لنماذج التنمية الغربية. كيف يستطيع الإنسان أن يأخذ زمام أمره بيده تحت وطأة الانتحار الكوكبى

(*) يقصد المؤلف واقع الحال عند الغالبية من المتدينين، خاصة فى فرنسا وأوروبا، من انفصال العقيدة عن الحياة العملية.

خلال القرن الذى بدأ، بعيداً عن الانحرافات الغربية خلال خمسة قرون من الحداثة وهيمنة الولايات المتحدة؟، بعيداً عن ذلك السبيل للاضمحلال الذى لا عقل له، ولكنه ملئ بالقوة؟! .

ويعتبر البحث عن فلسفة «الفعل» وتكوينها، كنقيض لميتافيزيقا الكائن التقليدية الغربية، مركز تفكيرى الفلسفى والمحرك له .

ومن هنا كان نقدى المنهجى للفلسفة الإغريقية التى اعتمدت منذ بارمنيدوس إلى أرسطو مروراً بأفلاطون - بدهية خارجية ثابتة .

ولم أتوقف عن طرح هذه البدهية الخارجية وهذا الثبات للنقاش منذ تأملاتى عندما كنت طالباً بفصل «حركة موريس بلونديل-Maurce Blondel» (الذى أدانته الكنيسة وحظرت نشر كتبه بصفته ينتسب للحضورية^(*))، إلى أن وصلت إلى انتقاد نيتشه الأساسى لهذه الخارجانية وهذا الثبات للكائن ولوجوب الكينونة، اللذين يعتبرون أساساً لكل أخلاقيات وسياسيات وعقائد الهيمنة^(**) .

لأن هذا الكائن إذا وجد خارجنا وبدوننا، وفى كينونته فوق الوجود المادى، سيكون بالضرورة قاعدة وقانون وجودنا وفعلنا . إنه قدرنا .

وقد سجل المسيح أكبر انشقاق فى تاريخ البشرية، ذلك أنه، وحتى عصره، كان الناس ينظرون إلى الآلهة كحكام قاهرين يتحكمون فى مصير البشر من أعلى فيعاقبون ويثيبون وفقاً لدرجة إذعان وخضوع البشر للأوامر الإلهية، سواء تعلق الأمر بزيوس أو جوبيتر أو يهوه رب الجيوش أو (رب المذابح) .

(*) الحضورية: مذهب فلسفى يقول بأن الإنسان يشعر بحضور الله، ولكنه يعجز عن جعل هذا الحضور موضوع علم واضح .

(**) القدر المحتوم، أو المكتوب، والذى يفرض على الناس السلبية والتسليم أمام مختلف أنواع الطواغيت، وذلك المفهوم الخاطئ شاب التفكير الدينى طوال التاريخ، وهو النقيض الزائف لما جاء فى الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .

وعلى العكس من ذلك، فقد استطاع أضعف البشر من خلال عيسى - عليه السلام- أن يدرك ويعيش شكلاً من أشكال الارتقاء الروحي، الذى لم يعد خارجانية وهيمنة، ولكن أملاً ومسئولية كاملة تتيح له تحقيق مملكة الرب.

واستطاع عيسى بذلك أن ينزع صفة القدرية عن التاريخ. ولم تكن «قيامته» إلا ظاهرة بيولوجية قد تحدث مرة واحدة كمعجزة لشخص ما يمتلك القوة كلها. وهذا هو - فى كل الأيام - رفع عيسى، الذى يحيا من أجل هؤلاء الذين ضلُّوا. فيحدث هذا الرفع فيهم تغيراً، فينتقلون إلى حياة جديدة تماماً وذات معنى.

وتوجد هذه المملكة سلفاً داخل كل إنسان يدرك ضرورة تجاوز ما هو موجود وما يكونه. وهذه المملكة لم تُفعل بعد لأن هذه الضرورة نفسها لم توجد بعد بكاملها عند الجميع.

ومن هنا ولدت عندى - فى المراحل الأولى من تأملاتى عام ١٩٣٣م- الرغبة فى أن لا أرى فى الفلسفة مهنة ليبرالية، ولكن ضرورة أن أبحث فيها عن حل يعطى معنى لحياتنا الشخصية ولتاريخنا المشترك، حتى نتجاوز مرحلة الفوضى، وكان ذلك فى الوقت الذى مررنا فيه بأخطر أزمة فى تاريخنا، تلك الأزمة التى بدأت فى الولايات المتحدة عام ١٩٢٩م وانتشرت فى العالم كله وظهرت بشكلها السياسى فى أوروبا بوصول هتلر إلى السلطة.

كانت المشكلة سياسية ودينية حقاً: دينية لأنها تحتم على كل إنسان اختيار الغايات الأخيرة من حياته، وسياسية لأن مسألة خلاصنا الفردى لم تكن وحدها على المحك، لكنها مسألة خلاص المجتمع البشرى كله. كان لزاماً حتمياً أن نأخذ مكاننا فى المعركة، ونختار معسكرنا، ونحدد منهجية للمبادرة التاريخية التى تتيح لنا الوسائل التى نتجاوز بها التناقضات التى تحدثها الفوضى.

وقد ظهر لى فى هذه المرحلة الأولى من طريقي أن الأكثر إلحاحاً - بالنظر إلى ثقافتى الفلسفية فى سن العشرين - أن أحيا على طريقة كييركجارد وكارل

ماركس معاً، أعيش فلسفة كييركجارد لأنه رأى - فى تأملاته «الخوف والفرع» حول تضحية إبراهيم - عليه السلام - أن هناك أهدافاً لا نهائية يمكن أن ترى النور بعيداً عن منطقنا الضعيف وأخلاقنا التافهة والعابرة. وقد وجدت فى ذلك علاجاً لشتى أنواع الفردية المثيرة للسخرية التى تجعل من كل واحد مركزاً ومعياراً لكل شىء، وتقودنا للمواجهة المستمرة بين إرادات التنمية وإرادات القوة على مستوى الأفراد والأمم، واكتشفت للمرة الأولى الضرورة الملحة للقيم المطلقة، ليس بعيداً عنى أو فى السماء ونجومها وآلهتها المزيفة، ولكن فى الحاجة الضرورية الداخلية التى يتعذر ردها، تلك هى البدهية الأساسية الأولى التى كانت تستطيع وحدها أن تعطى لحياتنا وفعلنا نوعاً من الانسجام، وإن لم يكن كذلك فستعطيه نوعاً من الفاعلية التى تأتى من مشاركته فى الحركة التاريخية الواقعية.

ولقد وجدت عند ماركس الذى كنت قد قرأته حتى ذلك الوقت بشغف فكرى محض، ليس مفهوماً دينياً وميتافيزيقياً ووضعياً جديداً للعالم فحسب، ولكنى وجدت حاجة أخرى، وهى ضرورة أن تتخلى عن الفردية فى أن تحل وحدك، وبالفكر فقط المشاكل التى تخلقها الفوضى العالمية، وضرورة أن تلتحق بقوة مقاومة هذه الفوضى، وتناضل معها كى لا تخاطر بأن تشاركها أخطائها وتجاوزاتها، وربما جرائمها فى عالم كانت الجريمة فيه عالمية.

وهكذا أصبحتُ مناضلاً لمدة أربعين عاماً فى حزب يستند إلى منهج ماركس الذى صدقه الواقع التاريخى والممارسة العملية معاً. وكان المناضلون فى المقاومة من ميونيخ يكافحون تبعية أوروبا لمن جعلتهم الحرب - بقليل من النفقات - سادة العالم. وقد بدا هذا الحزب بالنسبة لى أقل سوءاً، بل إنه لم يوجد سوء أصلاً، وقد كانت مشكلة هذا الوقت أن يعيش ماركس وكييركجارد فى حياة واحدة، وقد سمعت سارتر نفسه يقول إن هذا كان طموحه. وفى الواقع فقد استخلصنا من ذلك نتائج متناقضة تماماً. وعندما بدأ سارتر من هذه المواجهة

الدرامية بين الموضوعية وتجاوز الكينونة المادية، حاول أن ينضم فكرياً لماركسية كان هو قد نظرّها بنفسه ورأى فيها فلسفة لا يمكن تجاوزها فكرياً فى عصرنا. واتخذ بشكل عام موقفاً إنسانياً فى مواجهة بربرية عصرنا منذ المقاومة (ضد الاحتلال الألماني)، وحتى حرب الجزائر، ولكن دون أن يقوده هذا الموقف الفكرى المحض إلى التزامات أخرى غير التزامات الجماعات الصغيرة التى عرض فيها تصوراتهِ التخيلية الخادعة عن السياسة النظرية.

أما طريقى فكان مختلفاً تماماً، ففي المعارك الحتمية التى تمزق العالم، لا نستطيع أن نظل فى أعلى مكتفين بالدعوة إلى الخير، بل علينا أن نتخذ موقفاً من أجل الوصول إلى أقل الضرر (الذى يأتى بشكل عام كما كان عصر المسيح - عليه السلام - من جانب «من لا يملكون»، أى الأكثر فقراً).

وعلى الأكثر، فإن علينا أن نتمسك بخلق نوع من انفتاح السمو، بعيداً عن المادية، عند المناضلين بالطريقة التى توحى بها خبرات الكفاح الأكثر إنسانية وربانية فى عصرنا، ذلك هو انفتاح «الكهنة العاملين» أو علماء اللاهوت الداعين للتحرير^(*)، والذين يهدفون إلى التوفيق بين التاريخ والارتقاء البعيد عن المادة.

لا أعرف ما إذا كنت كسبت رهانى الأول، ولكنى لم آسف على ما فعلته واحتفظت به خلال هذه الأربعين عاماً داخل حزب أصبحت أنا أحد قادته. ولم أستقل منه أبداً، ولكنى أبعدت عام ١٩٧٠م لتأكيدى أن «الاتحاد السوفييتى لم يعد يمكن أن يعتبر بلداً اشتراكياً».

ولم أتوقف - رغم كل العقبات - عن التصريح بأن «الثورة تحتاج إلى الارتقاء أكثر من حاجتها للحتمية (أو القدرية)».

وكان هناك داخل الحزب صراع مستمر ضد أى تفسير (وضعى) لمفهوم «الاشتركية العلمية». حيث إن الاشتراكية يمكن أن تكون علمية فى وسائلها: مثل تحليل نظام الاقتصاد الرأسمالى الاستلابى، والاستراتيجية التى تلائم هذا

(*) وبلغه الخطاب الإسلامى: العلماء العاملون بعلمهم، وليسوا المكتفين بالقول، والمنفصلين عن العمل.

التحليل، ولكن بشرط ألا نجعل - كما يشير ماركس - الإمكانية المستمرة لمقاطعة هذا الاستلاب أيًا كان حجمه، شيئًا مجردًا.

وهذا ما دفعنا إلى انتقاد جذرى للوضعية الماركسية الجديدة، حتى عندما أخذت مع «ألتوسير Althusser» وتلاميذه شكلاً «بنويًا» عندما قالوا: «إن الإنسان ما هو إلا دُمىة تشكله البنى المختلفة». وقد رفض هذا الشكل من عشرية إلى عشرية كما كان يفعله ألتوسير لحظة الانفصال الإيستولوموجى، (المعرفى)، مما أتاح لماركس أن ينتقل من مرحلة «الأيديولوجيا» إلى مرحلة «العلم».

أما على المستوى الخارجى، فإن هذا الجهد المتواصل لاحتواء لحظة الارتقاء فى الماركسية احتواءً تامًا، أتاح لى - عندما أنشأت وأدرت «مركز الدراسات والأبحاث الماركسية» - تنظيم حوار بين المسيحيين والماركسيين على مستوى الغرب المسيحى من إيطاليا إلى ألمانيا ومن كندا إلى الولايات المتحدة. وقد تعلمت فى هذا الحوار من كثير من علماء اللاهوت المسيحيين: الأب شينو والأب دوبارل فى فرنسا، ومن كاثوليك ألمانيا مثل كارل رانير، أو من البروتستانت مثل جورج مولتمان، ومن الآباء بارلوثنى وجيرادى فى إيطاليا، وكذلك الراعى أروماخا فى تشيكوسلوفاكيا والأسقف يوبنسون فى إنجلترا، والأب كورتنى ومودى والأب كاتنان لوير وهارفى كوكس بالولايات المتحدة، ومن الكاهن جونزالس رويز، والأب كافادينا ورامون بانيكار فى إسبانيا.

وفى أوج هذا الحوار فى سالزبورج، طرح الأب رانير، أحد أهم خبراء المجمع الدينى، السؤال الأخير كرد على ما طرحت من أسئلة عندما ذكرت له أن ماركس عرف الاشتراكية أولاً بغاياتها، عندما أعطى منهجية المبادرة التاريخية (وهذه مسألة تتعلق بالوسائل) عندما قال: «إن علينا أن نهىء لكل طفل يحمل فى داخله عبقرية رافائيل موزار الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تتيح له أن ينمى بداخله كل هذه الإمكانيات».

وقد أعطى الأب راهتير الإجابة على بحثنا المشترك عندما أوضح لى أن ماركس، كما حاولت أنا أقوم بدوره فى هذا الحوار، لم يحدد إلا غايات ما قبل النهاية بينما كانت المسيحية دين «المستقبل المطلق». وقد كتب ذلك فيما بعد فى تقديمه للترجمة الألمانية والإنجليزية لكتابه: «من اللعنة (الكنسية) إلى الحوار، ماركسى يخاطب مجمع الأديان».

وقد قبلت من جهتى فكرته وسمحت لنفسى فقط أن أضيف التالى: لنعمل سوياً، كاثوليك وماركسيون، لنصل إلى هذه «الغايات قبل الأخيرة»، وإذا كنا نحن، الماركسيون، لدينا الاعتقاد بأننا قد وصلنا إلى «نهاية التاريخ»، فسنكون سعداء بوجودكم جانبنا، أنتم أيها المسيحيون، لتقولوا لنا: عليكم أن تذهبوا أبعد من هذا فى الإبداع، ولكن لا تقولوا لنا ذلك مبكراً؛ - على سبيل المن - لكى تبعدونا عن طريق الكفاح الذى يقودنا إلى هروب خير. يبدو لى إذن أننا أدركنا سوياً الهدف الروحى الذى حددناه لأنفسنا، ولكن يبقى الكثير الذى يجب أن نقوم به لكى نجعل مجتمعاتنا الخاصة تسير نحو هذا الهدف.

ويوضح تراجع الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة للانفتاح الرائع للقاتيكان الثانى وتضامن الأحزاب الشيوعية، وظهور الاتحاد السوفيتى والصدع المتواصل بين الشمال والجنوب، «بين من يملكون» و«من لا يملكون»، وانتصار وحدانية السوق، وتحطم الأغلبية، كل ذلك يوضح الطريق الذى علينا أن نسلكه؛ لنجسد الحقائق التى اكتشفناها سوياً.

ومن جهتى فعندما استخلصت النتائج الإيجابية من هذا التوضيح النظرى للمسائل، ولكن بقياس المخاطر الجديدة فى العالم، اقترحت على مجمع الكنائس المسكونى عام ١٩٧٤م (وبحضور مراقبين من القاتيكان) أن نوسع حوارنا، حيث تجمعنا - مسيحيين وماركسيين - نفس المرجعيات الثقافية واليهودية والمسيحية، واليونانية الرومانية. اقترحت أن تنتقل إلى حوار أكثر شمولاً، إلى «حوار الحضارات» مع آسيا وأفريقيا وأمريكا الهندية.

وقد قابل المشروع بعض الفتور لأنى عرّفت الحوار على أنه مبادلة يقتنع كل طرف فيها من البداية أن عنده بعض الأشياء التى يعلمها للآخر، أى أنه مستعد لأن يعترف بأنه يمكن أن يفتقد شيئاً ما فى حقيقته الخاصة، وأنه على استعداد كذلك لأن يطرح ذاته للنقاش. ولم تُرض هذه الفكرة التى يمكن أن توحى ببعض الخلل فى «الكاثوليكية» التى يعلن عن عالميتها الكونية منذ قرون، لم ترض المندوبين الكاثوليك (ويجب أن أقول إننى وجدت نفس التحفظات فيما بعد عند بعض العلماء المسلمين ولأسباب مشابهة وهى ادّعاء امتلاكهم الحقيقة المطلقة).

ولقد اصطدمت - من الناحيتين - مرة ثانية - بفلسفة الكائن، ومعيّار واحد مطلق للحقيقة والخير، وخلق ونظام وُجد ذات مرة من أجل الجميع. وإذا كان الله قد أراد هذا الكائن ونظامه، فإن تغييره يعد انتهاكاً للحرّمات، وإذا كان هناك وحيٌّ نهائىٌّ أو نبوة خاتمة، فإن النظر إلى ذلك على أنه تجديد وإبداع يعتبر كذلك انتهاكاً للحرّمات.

وتمنعنا المحرمات العقائدية التى أحدثها انعكاس الكائن فى خارجنا من إدراك أن الله - رغم أقوال عيسى وحديث القرآن - فى عمل دائم، وأن الخلق مستمر وغير متناه، وأن كل واحد منا متعاون مع الله الواحد الذى يوجد «فى داخله» دون أن يكون «له وحده»، فكل واحد منا مسئول مسئولية شخصية عن الإجابة على هذه الضرورة الإلهية. لا بد إذن أن أواصل البحث عن حوار أوسع بدون شركائى المعتادين من ماركسيين ومسيحيين..

وإذا كنت أشعر بالتيه، أليس من الجنون أن أدعى أننى على صواب فى مواجهة كل العالم؟ وفى خضم هذه البرودة المميتة للفراغ والوحدة، قابلت فى النهاية العالم الحقيقى، أى الشامل، بينما كنت قد حوصرت حتى ذلك الحين داخل ثقافة غربية بحتة. ولأنى أستاذ فلسفة حائز على كل الشهادات الممكنة فى المهنة، فقد أدركت أننى كنت أجهل كل شىء عن الفلسفات غير الغربية، وكل شىء عن الحكم القديمة فى الصين والهند والإسلام، وعن التراث

الشفاهى للمجتمع الأفريقى، وعن كنوز أمريكا الهندية «مايا أو أنكا» (*) التى خربها الغزاة الإسبان. وقد أثار هذا الاستعمار الثقافى الذى فهمته منذ أن كنت فى المدرسة غضباً لم يعد يفارقنى. فشرعت أقرأ بشغف تأملات الطاوية (**) للاوتسو، وأعمال تشاونج تسو الفلسفية، والفيدا (***) والأوبانيشاد والملاحم الهندية القديمة لراميانا وماهاباراتا، الأولى فى الرواية الصوفية لتالسيداس والثانية التى أخذ منها بها جافادجيتا الإلهية. وكذلك اكتشفت بوبول فاه الذى بقى بعد تدمير الأعمال التى كتبها شعب المايا حول محارق محاكم التفتيش، وكذلك التى قدمتها مجتمعات شعب الأنكا وحكايات التراث الشفاهى الأفريقى، والتى ظل بعضها مثل القايداره فى كتابات أمباتى باه. ثم كان بعد ذلك الإعجاب برؤية كبار صوفية الإسلام للعالم، وأشعارهم؛ من أمثال ذى النون المصرى إلى الشهرستانى، ومن ربيعة البصرى إلى الرومى وابن عربى..

وبذلك أصبحت الروح تتنفس من جديد وبعثت فى عرض العالم، بعد الهروب من هواء الغرب غير المتجدد.

وهكذا مررت بخبرة الإسلام الأندلسى، عندما أنشأت فى قرطبة متحف إسبانيا الوحيد الخاص بحضور وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية. والأمر يتعلق هنا بتوضيح أن إسبانيا عصر الخلافة مثلت عصراً طويلاً من عصور الثقافة الإسبانية والأوروبية، تلك التى أعادت التواصل المفقود بين ثقافات الشرق والغرب، وأتاحت اكتشاف انفتاح المسيحيين العميق، عندما جمع رامون ليل الأديان الإبراهيمية الثلاثة فى كتابه: «حوار الحكماء الثلاثة والرجل الظريف»، وقام الملك ألفونس العاشر لوساج والأسقف ريمون دى توليد بترجمة كنوز الثقافة العربية الإسلامية التى عرفنا من خلالها ثقافة الإغريق والشرق، إلى اللغة اللاتينية.

(*) مايا: شعب يقطن هندوراس البريطانية وجواتيمالا الشمالية.

وأنكا: شعب يقطن فى بيرو قبل الاحتلال الإspanى.

(**) الطاوية: فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصينى فى القرن السادس قبل المسيح.

(***) الفيدا: كتب الهندوس الدينية.

وكان هناك مكتشفو اللانهاى العمالقة من أمثال الكاردينال دى كى الذى تجرأ وحلم بمجمع عالمى للأديان ووضع خطته فى كتابه: «سلام الإيمان». كما نجد كذلك صوفية المعلم إيكاردت، المأخوذة من ابن سينا الذى فتح آفاق وحدة العقيدة دون النظر إلى اختلاف الأديان. وقد تواصل هذا التقليد مع الإسبان المحدثين الذين فتح لهم الأب آتان بالاسيو الطريق بكتابه: «الإسلام المسيحى»، والذى أشار فيه إلى الإخاء الصوفى والشعرى لابن عربى وللقدّيس يوحنا دى لاكروا.

ولم تكن فلسفة «الكائن» والتى تعد أكبر خدعة مسيطرة على الغرب، كما كتب ذلك أحد الفلاسفة المسلمين، حاضرةً أبداً خارج شبه جزيرتنا التى لا معنى لها. أدركت أن الغرب على مدار مئات السنين كان غرباً، وكان هذا العنوان الجانبى لكتابى الأول: «حوار الحضارات»^(١). ففى أغلب لغات العالم لا توجد كلمة «الكينونة» إلا كرابطة (وأحياناً لا) وليس كاسم.

وحينئذ فقط فهمت كيف تجاوز بكثير معلّمى القديم جاستون باشلار كل فلاسفة عصره المزعومين.

فقد أسهم بتأملاته المشابهة عن نظرية المعرفة والإبداع الشعرى بشكل جدى فى فلسفة «الفعل» التى تقابل فلسفة «الكائن». وقد أضعف كانط قبل ذلك الشئ الذى يمثل شبحاً فى ذاته، والذى استمر كذلك فى الفراغ الأثيرى لكوايبس أتباع هيدجر وسارتر.

وبعد دراسة تاريخ العلوم، وبعيداً عن الرياضيات غير الإقليدية والفيزياء غير النيوتونية والكيمياء غير اللافوازىّة، رسم باشلار فى كتبه «الروح العلمية الجديدة» و«فلسفة النفس» فلسفةً غير ديكارتية. وبذلك أبعد شبح كائن الألفيتين جاعلاً من العلم انعكاساً وليس خلقاً لمشروعات باطلة غير معترف بها، ولكنها متجددة فى نفيها الخلاق والشعرى بالمعنى العميق للكلمة.

(١) باريس، دينويل، ١٩٧٧م.

لقد تعرض باشلار لقصيدة الخلق المستمر من خلال الفنون، وحلم اليقظة والإبداع الشعري.

وهذا ما جعلنى أقوم بتأمل مزدوج: أما التأمل الأول فهو حول الفنون التى ليست غربية والتى ليست عاكسة ولكنها كاشفة. وليست هذه الفنون تقليداً لكائن أو لمظهر ما، ولكنها ابتكار أسطورى وشحد للطاقات. وأما التأمل الثانى فيدور حول تطور العلوم فى القرن العشرين من النسبية والكميات إلى البيولوجيا الوراثية والفيزياء الفلكية فى أيامنا هذه. كان حلمى الطموح هو الوصول بطريق باشلار المزدوج إلى نهايته حتى يتلاقى الاتجاهان: فنرى فى الابتكار العلمى حالة خاصة من الإبداع الشعري الذى يتبعه فحص تجريبي.

وهكذا تمت القطيعة النهائية مع فلسفة «الكائن»، وكان يمكن لفلسفة «الفعل» أن توجد وتحملها حضارات كل الشعوب فى كل العصور.

وعندما تركت تاريخ الفلسفة الغربية الذى كنت مكلفاً بتدريسه فى الجامعة حتى ذلك الوقت، كرّست نفسى للبحث حول علم الجمال، الذى يعتبر ليس كميافيزيقا الجمال ولكن كتأمل حول فعل الإبداع الفنى.

وأخذنى أولاً - وأنا أعمق محاضراتى حول فن الرسم الأوروبى من سيمابو إلى بيكاسو - الطابع المستقبلى لأعمال الأساتذة الكبار جميعاً. فقد أوضحت فى كتابى «ستون عملاً تبشر بالمستقبل» هذا اليقين الأول: فكل مبدع جدير بهذا الاسم (أمثال جيوتو، رمبراندت، فان جوخ، كاندنسكى وأخيراً بيكاسو) يرسم ليس انعكاس كائن أو ظاهر ولكن مشروع حقيقة لم توجد بعد.

وعندما أتممت هذا البحث، حاولت أن أقول فى كتابى: «رقص الحياة» (الذى كتب لى بيجار بصدده قائلاً إنه وجد فيه قناعاته العميقة حول فن الرقص) إن الأمر يتعلق هنا بتجاوز للحركات النفعية والپروتوكولية بما سماه من ينفذ مسرح نو Nô اليابانى بـ «تقليد حركات الله».

وقد أتاح لنا فن العمارة فى إنجازاته الدينية الكبيرة أن نفهم كذلك لماذا يكون الفن مقدسًا، لأنه يحرك المشاهد ويجعل منه فى حالة قداس وكائنًا بشريًا، لا يكتفى بأن يكون ما هو كائن. ولا يكون العمل كبيرًا إذا لم يحرك الناظر إليه. فالفضاء المسيحى لإحدى الكاتدرائيات مع حركة قبابها البسكالية تحمل فى طياتها اللانهائى. أما الفضاء الإسلامى لمسجد من المساجد فعلى العكس من ذلك، ينقش الإنسان المؤمن على كريستال أعمدته الشفاف. أما القباب الأكثر انخفاضًا فإنها تكون مثل أقواس قزح التى تشير إلى اللانهائى. وعندما نرتقى درجات بروبيدور نكتشف مظاهر الروعة المتتابعة فى المعبد الهندوسى الذى يعتبره الهندوس مركز وخلاصة العالم. وتبعث هذه الأماكن فىنا جسدًا مشاعر لا تتجزأ، مثل الشعور بالجماعة والمشاركة وتخطى المعنى الأخير لحياتنا أى الشعور بالإيمان المشترك بعيدًا عن الاختلاف التراثى للأديان.

وهكذا تفتح الفلسفة بالضرورة، من وجهة نظرى، على علم اللاهوت الذى لا يمكن أن يكون بدوره إلا شاعريًا؛ لأنه يتحدث عن الله، وعن هذا الارتقاء (بعيدًا عن المادة)، دون أن يكون هناك معيار مشترك مع البشرية يبين أننا نستطيع أن نحيط به أو على الأقل نحدده بمفاهيمنا، ولكننا نعنيه فقط أو نوضحه بصورنا، وكناياتنا وأساطيرنا؛ لأن الله لا يمكن أن يتواصل معنا إلا بأمثال مأخوذة من خبراتنا.

أصبح هم حياتى المستمر إذن هو البحث عن النقطة التى تصيرُ عندها العقيدة الدينية والفعل السياسى وفعل الإبداع الفنى شيئًا واحدًا.

ويتضح بجلاء الربط الوثيق بين الإيمان والسياسة، أو البدئية التى نقرر بها غاياتنا الأخيرة، واختيار الوسائل والمناهج لتحقيقها فى نهاية المجهود التى بذلته فى محاولتى الأولى.

واستمر حديثي عن الله كـرغبة في القول: إن الحياة لها معنى، وإنني مسئول عن اكتشافه ومحاولة الوصول إليه، وأى بدهية تعنى بالتأكيد اختياراً يتعذر إثباته وضرورياً معاً. ضروري كي يعطى لحياتي نوعاً من الانسجام، أى أن يكون شيئاً آخر غير الفوضى غير المسئولة (كبدهية إقليدس التي أصبحت ضرورية لي لكي أحفظ باستقامة الطاولة والحائط الذي أبنيه). ويتعذر إثباته كذلك لأنه لا ينتظر ضمناً من كائن «وُجد سلفاً» قد يكون واجب كينونته انعكاساً لنظام وجد قبل ذلك ويتعذر المساس به. وإذا كنت أحاول تدمير فكرة أن أجعل من نفسي إلهاً بصفتي «دليلاً» على «وجوده» وكبرهان على وجود الله، فقد أكون مؤمناً متعصباً لشبح الكائن الأعلى حتى أنتظر منه عقاباً أو ثواباً.

ولهذا وكما يبدو لي، فإن دين القرن الواحد والعشرين وهو الإيمان بمعنى الحياة والتاريخ والمحرك لفعلنا الجماعي والمسئول لكي نقيم عالماً واحداً، لن يتطور في امتداد الأديان الحالية بمفاهيم مؤسساتها التقليدية. فالكل يدعى احتكار الحقيقة القطعية والكلية ويرفض اختلاف الرؤى الثقافية للأديان الأخرى التي أوحى بها نفس الارتقاء (عن المادية) التي ليس لها - بتعريفها - معيار مشترك مع مفاهيمنا.

ويقوى المفهوم اليهودي المسيحي للخلق على -سبيل المثال- الفلسفة الإغريقية عن الهيمنة والنظام الخالد لترتيب أفكار أفلاطون أو تدرج مفاهيم وكائنات أرسطو.

ولأن الله خلق العالم مرة واحدة (كان ذلك في ستة أيام أو في انفجار واحد) فسيعتبر ادعاء تغيير هذا النظام الخالد انتهاكاً للحرمات. ولقد حمل بولس إلى المسيحية هذه الرؤية الخطية للتاريخ التي كانت هي نفسها رؤية العبرانيين.

«لأن الله هو الذي ينشئ فيكم الإرادة والعمل لأجل مرضاته» (الرسالة إلى مؤمنى فيلبى ١٣: ٢)

يعتبر بولس إذن مؤسساً للاهوت الهيمنة، وقد كانت بصمته واضحة على

تاريخ الكنيسة، حتى حاولت علوم اللاهوت الحالية الداعية إلى التحرير، أن تعثر على رسالة يسوع المحررة والرافضة، وقيامه بين الفقراء الذين سيحمل إليهم - بصفة خاصة - «البشارة» عن إنسانيتهم المطلقة ضد كل أنواع التحريم والخضوع التي يفرضها كبار الكهنة في كل الأديان وفي كل العصور.

وكذلك الإسلام فإن له قديسًا مثل بولس وله مستبديه المتطرفين، ويحتاج هو الآخر إلى نظرية تحررية.

ولا يجب أن تنسينا إخفاقات الأديان وارتباطها بالسلطة، وتبريرها الأيديولوجي لشتى أنواع الهيمنة، نهضتها الأولى: تحديدها للغايات الأخيرة. إن إقصاء البعد الارتقائي للحياة الذي يأخذ في اعتباره حياة الإيمان، قد أدى إلى فوضى أسوأ من الحروب الصليبية ومن محاكم التفتيش. وقد جرت وحدانية السوق، التي تعتبر مضادة للدين، ولم تستطع أن تقول اسمها، جرت العالم كله إلى غابة تتصارع فيها إرادات التنمية وإرادات القوى عند الأفراد وعند الأمم.

ولكى نقيس درجة بربرية النظام، يكفي أن نتذكر أنه بعد خمسة قرون من الاستعمار، وفي عام ١٩٩٤م يسيطر ويستهلك أصحاب المزايا الذين يبلغون عشرين في المائة من سكان العالم على ثمانين في المائة من ثروات الأرض الطبيعية. وقد أدى ذلك إلى ثلاثين مليون ضحية سنوياً في البلاد غير الغربية بسبب الجوع وسوء التغذية.

ولا يمكن أن نتخيل دليلاً جامع للبشرية إذا لم يهدف الناس إلى الارتقاء بعيداً عن رغباتهم الفردية. ولن تؤدي هذه الحرية الخادعة المثيرة للسخرية إلا إلى تحطيم الأقوياء للضعفاء في حرب الجميع ضد الجميع. ولا يمكن كذلك أن نعطي دليلاً يتعذر رده، أكثر من سمو رؤية ماركس على رؤية آدم سميث الذي يرى أن الإنسان إذا تبع مصلحته الفردية، تتحقق المصلحة العامة. ويقول: «إن يداً خفيفة هي التي تحقق هذا».

ولم يخف ماركس في كتابه «رأس المال» إعجابه بديناميكية الرأسمالية،

حيث أقر بأنها قد تخلق ثروات ضخمة، ولكنه توقع أنها قد تسبب كثيرا من عدم مساواة والبؤس مثل الاستقطاب المتزايد للثروة فى أيدى أقلية، واستلاب وإملاق الأغلبية.

وما حاولنا إحيائه أمس تحت اسم حوار الثقافات بين الماركسيين والمسيحيين، ثم حوار الحضارات بين الشرق والغرب، لا يمكن أن يكون إلا عمل الجميع فى استماع متبادل مع يقين يؤسس لأى حوار: إن لدى طرف ما يعلمه للآخر، وهو على استعداد - نتيجة لذلك - لطرح يقينه الخاص ليذهب إلى أفق حقيقة دائما ما تكون بعيدة المنال، ولكنها تكون دائما أكثر شمولاً وعالمية وودية.

وعندما يحصل كل فرد، فقط بمشاركته فى المجتمع، على الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تتيح ازدهاره الكامل، فإنه يتجاوز عند ذلك إنسان ما قبل التاريخ المستلب، الذى يوجد داخله، ويرى ظهور «مجتمع الأحياء الأصيل».

وإذا واصل القرن الواحد والعشرون مسيره بهذه الانحرافات، أى إذا قاده - كما كان فى القرنين الماضيين - حمقى أقوياء، فإنه لن يستمر مائة عام وسنقتل أطفالنا الصغار. وكان من حظى (أو من شقاوتى؟) أن أعيش القرن العشرين كله تقريباً، وهو أشد القرون دموية فى التاريخ. حيث سال البترول والدم، وازدحم العالم بالمخلفات النووية التى تهدد أبناءنا لقرون عدة، وبالومضات التليفزيونية التى تفضل العرض الذى يخفى عنا الواقع الحقيقى وما نستخلص منه الأدلة التى تقودنا فى الحياة.

أتجول الآن بين أنقاض الإنسانية التى أحدثتها الأسلحة المتطورة باستمرار لتدمر العالم، والتجار الآلهة الذين يسلبوا العالم معناه.

لنبحث سوياً عن أفق جديد يمكن أن يبرز منه النهار.

هذا ما دفعنى أن أكتب وأحدث عن الله، وبالتحديد لكى أجمع - وأحياناً بشكل غير منظم- بعض بذور التأمل الناتج من خبرة قرن كامل ملعون، لأساعد من يريدون ألا يكونوا بشر نهاية الزمان ومن يعتقدون أننا يمكن أن نعيش بطريقة أخرى.

إننا نضع فقط بذور المستقبل كى نعيش بطريقة أخرى. كى نعيش.

أما من كانوا قادتى وقدوتى خلال ما يقرب من قرن من الحياة، فإنهم أعضاءوا نفس المشعل: أنت يا دوم هيلدر كمارا المطران البرازيلى الذى كتب إلى الشيوعى الذى كانه حينئذ: «عندنا نفس التعطش»، وأنت، أيها الأب شينو أو بالأحرى يا شينو، يا أبى قد كتبت: «بقدر ما أعمل، يكون الله خالقاً» (*). وأنتم أيها الرفقاء: من توريز الذى أوضح لى الجذور المسيحية للاشتراكية الحديثة بمناسبة استشهاد اللاهوتى توماس مونزير، إلى أراجون الذى ما زلت أجد صدى قصيدته «الوردة والخزام» فى قلبى.

لقد ظللنا جميعاً على حافة نفس الهاوية ونفس الفناء الصامت الملىء بممكنات لا متناهية. وأدركنا الفراغ الذى يحيط بنا ورغبة لا تروى فى اكتشاف الغابة البكر، ولا أدرى كيف كان من الممكن أن أعيش بدونهم، بدون هذه النداءات الصادرة رغم ذلك من كل الآفاق.

ومنذ طفولة الإيمان هذه حتى أضوائه الأخيرة التى يتعذر الوصول إليها سيطر على نفسى وأضاء ليلى ألف من المحاولات المتناقضة والأخوية.

وكان أول لقاء بيننا - وأقول لقاء لأنه كان لدينا الانطباع فى كل مرة أن شخصاً ما يأتى نحونا، يأخذ بأيدينا، ويقودنا إلى هنا - إنه لقاء يسوع عليه السلام.

(*) اقرأ إن شئت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقد كان ذلك فتحًا أساسيًا فى الإطار - بل سأقول فى القفص - الذى عشت فيه حتى العام السادس عشر من عمرى فى إلحادى المريح (بلا سؤال ولا بحث) فىأتى هواء ينشيك كهبة ريح بحر أو رباح أو لانهاى. إنه عيسى - عليه السلام - الذى لا يتركك أبدًا، لم يأت بتاج من الذهب ولكن من الأشواك، وأناس ضعفاء متشردين بشعر مشعث، أحدث به ذلك زوبعات آتية من عرض البحر. أما قدماء العاريتان مثل متسول، فإنها قادرة على الدوران حول الأرض أسرع من دوران الشمس. لم يكن ملكًا يحكم، ولكنه أخ فقير، ولا نستطيع حتى أن نراه ولكن سنتخيله. أما دعوته فهى قطعية لا تقاوم. لقد طهرنى من يقينى الهادى ومن كسل الروح الذى تجاوز الحد.

ومع ذلك، ظللت مشمئزًا مثل جواد جامح! لقد عشت يا أخى، يا ابن الإنسان، وخرجت من الحياة التى كانت، وتركت كبار الكهنة اليهود والرومان يحكمون. لقد حطّم هذا القانون المزدوج - قانون الصدّوقين(*) والقياصرة - شعبًا بكامله.

كيف تعيش إذن حياة بشرية وإلهية وتشارك فى كل تمرد ضد أى اضطهاد؟ ولكى أكون وفيًا بالكامل لك، وأواصل مع جميع رفقاءنا الطريق الذى بدأته لحياتنا، أكوّن نواة التمرد مع كل ضحايا الأرض، كان علىّ أن أقتفى أثرى، ولكن ليس وحدى بل معهم جميعًا. لقد أصبحت مناضلاً بفضل تيقظك. ولكى أكون وفيًا لك، أصبحت شيوعيًا فى هذه الحركة الضخمة للمقهورين والجوعى، فى هذا التضامن الذى أعطى - مثلك - لملايين البشر بارقة أمل. لقد مات وقتل ملايين البشر فى هذه المعركة. وفعل ذلك السلطات التى انضم إليها - فى أغلب الأوقات - من كانوا يستندون على فكرى بثياب مختلفة وأصدقاء آخرين. حتى إن بعضهم كانوا يصبون اللعنة عليك دون أن يعرفوك

(*) الصدّوقين: نسبة إلى الكاهن اليهودى «صدّوق». (طائفة من اليهود المحافظين المتسمين إلى طبقات غنية والذين يتمسكون بالتوراة ويرفضون التراث الدينى الشفهى، منكرين القيامة، والحياة الأخرى، والحساب).

بسبب هؤلاء الذين اغتصبوا اسمك. ومرة ثانية خان القادة الماديون والروحانيون من لا رتبة لهم: فها هم الكرادلة بأرديتهم الحمراء حول رجل يرتدى ثياباً بيضاء كما كان في عصر الإمبراطور الروماني، الذي كان يلقي تابعيك للحيوانات.

ثم طُردت من مجلس القيادة الآخر الذي يقول عن نفسه إنه شيعي، وأصبحت ضالعة في موتك الثاني وتمنيتُ عودتك. لقد بشرت حواريك بذلك: «مازال عندي أمور كثيرة أقولها لَكُمْ، ولكنكم الآن تعجزون عن احتمالها، ولكن عندما يأتيكم روح الحق يرشدكم إلى الحق كله لأنه لا يقول شيئاً من عنده بل يخبركم بما يسمعه ويطلعكم على ما سوف يحدث» - يوحنا ١٦: ١٢-١٣.

«أخبركم بهذا كله ليكون لكم في سلام، فإنكم في العالم ستقاسون الضيق ولكن تشجعوا فأنا قد انتصرت على العالم» - يوحنا ١٦: ٣٣.

لقد أوضح لنا عيسى معنى كمال الإنسان. وقد ظل حجر الزاوية الذي تدور حوله أفكار المتغيرة كما يقول ليوناردو بوف: «لقد تغيرت، لا معارك ولكن خنادق».

وتقترب رسالة محمد في مكة من رسالة عيسى، حيث توضح لنا ما الذي يجب أن تكون عليه الحياة لإنسان كامل سكنه روح الله. وكان هذا كافياً ليرصد أغنياء مكة مكافأة لقتله، وينذروه للموت كما حدث مع عيسى، عندما قال الكهنة الصدوقيون لبيلاطس: «ليس لنا إلا ملك واحد هو قيصر». وكان أن فازوا بصلب يسوع. ولكن محمداً، الذي هُدد هو أيضاً بالموت، نجح وأصحابه المخلصون في الإفلات من المؤامرة والوصول إلى المدينة التي سيصبح فيها رئيس دولة.

إنها تجربة تاريخية فريدة: كيف نحتفظ برؤسنا ونظل أوفياء لتعاليم يسوع عندما نتحمل مسئولية شعب ودولة؟ لقد بدأ محمد ﷺ بعولة الرسالة، فأمر بتكريم

الأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله . ووضع عيسى فى مكان مميز عن كل الأنبياء بسبب ميلاده المعجز (من عذراء)، وحيّاه باسم المسيح، ليس بالمعنى العبرانى كحاكم شعب الله المختار، ولكن بمعنى أنه يوضح كيف نقيم «مملكة الله».

كما نجد القرآن يضع الاختيار التفضيلى للفقراء فى صميم رسالته: يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وتهدف كل أحكام القرآن الاقتصادية إلى خلق مجتمع مبنى على المساواة. فالزكاة تفرض على الثروة، وليس فقط على الإيراد، بحيث لا يستطيع أحد أن يعيش على ثروة أجداده ولا ينفع مجتمعه. أما الربا فهو يعنى تحريم كل مكسب لا يأتى من العمل، وذلك لمنع تركيز المال فى يد جزء واحد فى المجتمع والشقاء لدى الجزء الأكبر (*).

أصبحت حينئذ مسلمًا دوغما أن أنكر «يسوع» أو «ماركس»، بل على العكس، كان عندى رغبة فى أن أظل وفياً لهم. وكما فى كل الأديان، أساء بعض حكام المسلمين وأمرؤهم وفقهاؤهم الذين فى خدمتهم، إلى الإسلام. وكما حدث فى اليهودية والمسيحية، فقد تجاوزوا العقائد والمبادئ التى كانت قلب رسالة إبراهيم وعيسى ومحمد - عليهم السلام - ليجعلوا الناس يعتقدون - باسم الالتزام الدقيق أن «تطبيق الدين» يعنى الخضوع لمحرماتهم، وليس الكفاح لتحقيق التحرر الإنسانى من الشقاء والمهانة والعبودية لكل وضع يُشوه فيه وجه الإنسان، الذى كرمه الله. وقد رأينا فى معابدهم خلال قرون تفرغ «أحبار» أثرياء متسلطين بكل السلطات التى لقدامى «أباطرة الرومان»، وحكام فاسدين ومستبدين، اعتبروا أنفسهم خلفاء «الخلفاء الراشدين»، وقد جاء بعدهم فى أيماننا أيضاً خلفاء أفسدتهم نفس الرذائل يتخفون وراء تشدد منافق، كما نجد فى أول الأديان السماوية فى الشرق الأوسط حاخامات صُنِعوا فى بروكلين وعملوا فى الخليل وعلموا «كتاب صلوات الحقد».

(*) ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

كان هناك «طالبان» عبريون، ومستعمرون معممون (يرتدون الطاقية اليهودية) كما يوجد في النصرانية صليبيون، ومستعمرون جدد في محاكم التفتيش وتجار الأسلحة والمخدرات والانحراف. وعلى هذا فلا يمكن أن نعتمد على رجال أى دين مؤسسى مسيطر، لتتجنب انتحاراً كونياً فى القرن الواحد والعشرين. ومع ذلك نؤكد أنه بدون أن نفقد شيئاً من الإرث الروحى للألفيات الأخيرة التى نقلها متمرّدو هذه الأديان السماوية الثلاثة: فعندما يدخل الاتباع الحقيقيون للأديان الكتابية الثلاثة فى حوار حقيقى مع حكمة آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ويصارع لاهوت التحرير «لاهوت الهيمنة التقليدى»، نستطيع عندها أن نبني القرن الواحد والعشرين بوجه إنسانى ربانى.

وليست المشكلة الأساسية تقنية أو اقتصادية أو سياسية، وبدون أن نهمل هذه المجالات الثلاثة، فإن الأمر يتعلق بتنظيمها لغايات إنسانية، وللبحث عن وحدة متناسقة لهذا العالم باختلاف ثقافته، كما يهدف تنظيم بهذه الأبعاد إلى الاختلاف عن «العولمة» المزعومة التى تسعى إلى تحقيق وحدة إمبريالية للعالم: بين الولايات المتحدة وتوابعها الأوروبيين، فى عالم يكلفه هذا «النمو» ثلاثين مليون ضحية فى العام، بينهم ثلاثة عشر مليون طفل بسبب المجاعة والحروب التى يؤججها الكبار (وفقاً لأرقام منظمة اليونيسف).

ماذا نفعل إذن لنتقل من مرحلة الانتحار الكونى إلى بعث الإنسان ووحدة العالم؟

وإذا سار هذا القرن سيراً أعمى فى انحرافاته، فإنه لن يستطيع أن يستمر مائة عام، ليس بسبب المذابح التى سيتعرض لها البشر فحسب، ولكن بسبب تدمير الطبيعة كذلك.

فلقد حطمت البربرية الجديدة المسماة بالإنتاج التكنولوجى والحدّات وكذلك التقدم، كل شىء فوق الأرض وتحت الأرض، فى المحيطات وفى السماء، كما فى العلاقات مع الأحياء. دمرت كل ما كان يسمح عبر ملايين السنين بنشر الحياة والإنسانية.

وقد أتاحت السيطرة الإعلامية على الجماهير تخدير الضمائر إلى درجة أنستها الهاوية والموت الذى يقودها إليها «الفكر الأوحى»، أى غياب التأمل حول الغايات ومعنى التاريخ الإنسانى.

وها هو البشر الأمريكى يعطينا الصورة الأكثر دموية لهذا الانحدار: فهناك مائتان وخمسون مليوناً من قطع الأسلحة المختلفة، لمائتين وخمسين مليوناً من البشر، وأطفال قتلة فى سن التاسعة، ومليونان من المسجونين، ومليارات الدولارات من الديون (أكثر من مجموع إنتاج دول العالم الثالث)، وثلاثة وثلاثون مليوناً من الفقراء، وحيث واحد فى المائة من السكان يمتلك سبعين فى المائة من الثروة الوطنية، وحيث هناك طفل واحد من كل ثمانية لا يسد رمقه فى «أكثر البلاد ثراء». وها هى الولايات المتحدة الأمريكية تعيش فوق كل الوسائل وعلى حساب بقية العالم: فالمضاربون يقومون بأعمال القرصنة فى الأسواق العالمية، والعتاد الحربى يدمر السكان والبنى التحتية، ويعود بهم إلى الوراء قروناً عديدة بحرب «غير متكافئة»، وهذا يعنى أن هذه الحرب تشن بوسائل تقنية دون أن يكون هناك معيار مشترك مع قوة مقاومة الخصم: فتجد الطائرات الحربية مقابل المدفع الرشاش، كما كان فى حروب القرن الماضى الاستعمارية: الرشاش مقابل الرمح.

أصبحت إسرائيل شيكاجو الصغيرة، فهى تغزو فلسطين بدبابات زنة أربعين طناً مقابل بندق خفيفة وقاذفى الحجارة، وما ذلك إلا دليل على الانحطاط الأخلاقى لعالم اختفى منه تماماً مفهوم «الشرف».

وتحتاج هذه الأزمة الكبيرة شيئاً آخر غير ثورة سياسية. وليست التغيرات الحقيقية والعميقة فى العالم إلا نتيجة لظهور أديان «جديدة»، (منسلخة من الأديان الحقيقية) فإننا. وكل هذه الأديان (اليهودية والمسيحية فى الغرب، والإسلام فى الشرق الأوسط) ترتبط وأحياناً تندمج مع السلطات المهيمنة بحيث تستخدم غالباً - وبعيداً عن أن يتم تجديدها - فى حفظ وتثبيت السلطات الموجودة بالفعل، وتشعل المواجهات السياسية بإعطائها مذاقاً روحياً.

وما نحتاج إليه اليوم هو تجديد وإدراك للإيمان كُبعد مكون للإنسان فى توحده، وليست الثورات فحسب هى التى تبدأ فى رأس البشر وقلوبهم، ولكن كذلك التغيرات الحقيقية فى القدر. وللأسف فإن كثيراً من الثوريين يريدون تغيير كل شىء ما عدا أنفسهم.

إن إدراك الوحدة الإنسانية من خلال وحدة الإيمان وليس «الدين الجديد» هو ما نحتاج إليه اليوم (وقد كان يهودى مینوحين من بين من بشروا بذلك برؤية واضحة). وذلك فى لحظة يؤجج الصراع فيها جمود المؤسسات التقليدية فى اليهودية والمسيحية والإسلام، تحت قناع الحديث الذى يتصف زيفاً بـ «الورع».

وهذا يقتضى ألا يدعى التفرد أى دين من الأديان الموحى بها. ويستلزم تفرد وحدانية الله الذى تدعو إليه الأديان أن ندرك نقص كفاياتنا وأهليتنا. ولن يتم حوار طالما أن كل واحد يؤكد من البداية أنه يمتلك الحقيقة المطلقة كلها. وعلى العكس من ذلك، نستطيع أن نبدأ حواراً بما يفتقده كل واحد من أدياننا والذى يمنعه من المشاركة فى الإيمان الأوحد.

هل يجب علينا إذن، أمام آلاف الخيانات التى ارتكبت فى هذه الأديان «الموحى بها» أن نصبح «ملحدین متصوفين» يتخلون عن إبراهيم أو عيسى أو محمد - عليهم السلام - أم نواصل معركتهم؟ إن الطريق مفروشة بحجارة حادة تحت أقدام عارية.

إن من لا يخشون من مجتمعاتهم قد رسموا لنا الطريق الذى لا حيدة عنه، أى أنهم مروا بتجربة السمو مع جميع الشهداء المشهورين أو المغمورين، والأحياء والموتى من أفريقيا وأمريكا اللاتينية والمغاوير المسلمين، هؤلاء جميعاً قد أوضحوا لنا ما هو الدين الحقيقى وما هو الاهتداء العملى الحقيقى: إنه حياة كاملة تتفاعل فيهما.

قد شهد كل هؤلاء - أيًا كان إيمانهم - أن الله ليس كائنًا ولا معلمًا منفصلاً عن الخلق، ولكنه «فعل» و«نداء». وقد جمع مارجريت بارتولومي دي لاس كازاس والأمير عبد القادر، بنفس الورع، التأمل الصوفي في الليل ومعارك النهار.

لقد عرفوا، وعلموا البشر كيف يعيشون زمن العواصف، بسكون واطمئنان من كانوا يؤمنون بإله يمثل كل شيء، بمعنى أن فزع الحرب وسرور الحب يعتبران جزءاً من نفس الحقيقة الكلية، وقد أوضح أبطالنا الأسطوريون أو التاريخيون لنا «الحقيقة، والطريق، والحياة».

إن الحياة بالإيمان هي وحدها القادرة على رؤية الحقيقة الكلية والمشاركة في كل المعارك، كالإله فيشنو الذي دعا إليه «أرجونا - Arjuna»: «أن تكون واحداً مع الكل» كما كان يغني الأوبانيشاد. وهذا يعني أن أعَمَقَ ما فيك يمثل للقوى الأكثر قداسة في هذا الكون الكلي، وهو ما سماه كل المناضلين منذ آلاف السنين إلهاً.

وليكن الاسم ما يكون! طالما أنك تعرف كيف تكون مؤمناً به. إن السباحة في العاصفة من غير أن تغرق نفسك يجعلك تخرج منتصراً على قوى الشر. مهاهو بونهوفر يقول: «عليك أن تساعد الله في معركته».

وليس إلهك هو القاضي الذي يدين إهمالك وهزائمك، وليس هو المنقذ غير المنتظر الذي يأتي لنجدتك عندما تقع تحت قبضة الأقوياء. ومنذ كانط لم يعد الله كائنًا ولكنه بدهية.

وعندما تتخلي عن كل شيء وحتى عما يربطك بالأقوى، يبقى عندك نداء إلى المقاومة كذلك. وقد كتب «باربوس - Barbusse» الذي اعتبروه كاتباً بلا إله قائلاً: «إن أمل الإنسان هو حقيقة الله، وأعظم الآثام هو اليأس والتخلي عن المعركة».

والإيمان هو أن تحاول رؤية الغاية وأن تكافح من أجلها، ولم تكتب هذه الغاية مرة واحدة فى مستقبل جامد. إن الإيمان هو مسئوليتنا فى كل لحظة عن تحديد هدف لسهم الزمان. وهو كذلك هذه الرؤية الكلية للعالم، ولتطوره المستمر، وهو مشاركة كل فرد فى إقامة «مملكة الله» كلٌّ على قدر قوته.

ويستطيع كل واحد منا أن يسير فى هذا الطريق: فسيشعر عامل النظافة الفرحة، لأنه يعلم أنه سينظف شارع المملكة، وسيعلم القائد السياسى أن إرضاء ناخبيه ليس هو الهدف، وإنما الهدف هو المشاركة فى وحدة العالم الحقيقية: تلك الوحدة التى سيستطيع كل طفل يحمل فى داخله عبقرية موزار أن يصبح بدوره موزار، ونحمل جميعاً فى هذا اليوم لواء الإمبراطورية المنتصر.

ولهذا فإن علينا ألا نتعلم مشاهدة العالم الصغير على طريقة الإلحاد. تحت إنسانية، والتى لا ترى فى الطائر إلا ريشه، وفى الإنسان إلا المؤامرة التى يحوكها والجريمة التى يُعدُّ لها؛ كما أنها لا ترى فى السماء إلا سحابة تمر تنذر بعاصفة شتاء أو جو الصيف الخائق. وبالمثل فهذه الطريقة لا ترقى بالإنسانية، إذ هى طريقة عالمٍ حوّل الواقع إلى مفاهيم.

علينا كذلك ألا ننظر للعالم بطريقة من هو غير إنسانى يدعى أنه يعلمنا الخير والشر، كما علمه إياه أبواه أو كاهنه، بدلاً من الاهتمام المتواصل بخلق وحدة العالم، أو على الأقل عالمنا حتى ولو كان صغيراً.

ولكى نخبر زلزال الأرض والسماء، لسنا فى حاجة أن نذهب إلى المعبد اليهودى أو الكنيسة أو المسجد أو حتى إلى بروبيدور.

وهذا الشاعر الأوردى (هندوسى ومسلم معاً) كبير Kabir يكتب فى القرن الخامس عشر:

«يا إنسان الإيمان، أين تبحث عنى؟

إنى هنا بجوارك

لستُ فى المعبد ولا فى المسجد

لستُ فى شعائرك ولا فى طقوسك
إذا كنت حقاً تبحث عني
فإنك قد وجدتني»

ويمكن لانقلاب حياتنا أن يصيبنا كخفقة حب تحت شجرة مورقة. لا أدرى
من أين أتت ولا ما هى رائحتها: ليست تلك رائحة البخور وعقارات
الهلوسة، تلك هى الشعلة الصغيرة التى تتفاعل داخل كل فرد منا دون علمه
أحياناً. وهى كذلك أغلب الوقت دون أن نشك فيها.

ويمكن أن تكبر هذه الشعلة فى كل لحظة وكل حركة - كعاطفة - على
مستوى العالم. وهذه عيناك أرى فيها كل شىء. الأشياء كما هى بلا مستقبل
ولا ماضٍ، وهناك العين الثالثة كما كان يسميها ريشارد دي سانت فيكتور.
تلك التى تمنحك المعنى: إنها عين السير والازدهار الإنسانى، وعين المدلولات
والغايات. وستنمى ما تعتقد أنه عالمك بعيداً عن الأفق، أى حتى اللانهاى
لكى استخدم كلمة أكثر ضيقاً فى معناها.

وبدأت الحياة الجديدة، الحياة الحقيقية؛ لأنها ليست شيئاً آخر غير الحقيقة المطلقة،
التي أصبحت أنت كذلك شاهداً عليها ومحتفياً بها.

الفصل الأول

الغرب غرب

ترجمة: د. سامي مندور

الغرب غرب

يبدو بالنسبة لنا - نحن الغربيين - أن طريق الهيمنة الذى أخذ اليوم اسم العولمة أضحى ممهداً جداً. وهذا الطريق يضرب بجذوره إلى آلاف السنين منذ أسطورة «الشعب المختار» التى بررت إبادة الآخرين، حتى «الإمبراطورية الرومانية» التى ادعت أنها تضم فى حدودها كل العالم المعروف آنذاك، وهذا ما سمته أوروبا بـ«الحضارة» (كما لو كان ذلك حكراً عليها) لكى تعطى الشرعية لاستعباد واستعمار الشعوب الأخرى. أما قادة الولايات المتحدة فقد جعلوا مهمتهم - التى كلفهم بها القدر - هى قيادة العالم لإقامة نوع من «العولمة»، أى نظام وحيد خاضع لما سماه أحد منظريها بـ«قانون السوق».

هذا الكتاب ضد هذا الدين الجديد الذى لايجرؤ أحد أن يعلن اسمه وهو: وحدانية السوق.

ولكى ننجز مهمتنا ونحقق الوحدة المتناسقة لعالم اليوم الذى انقسم إلى شمال وجنوب، بعد عشرين قرناً من انفصال الغرب، وخمسة قرون من الاستعمار، وخمسين عاماً من الهيمنة الأمريكية الإمبريالية، نجد من الضرورى أن نرسم منحى تطور الغرب النّهَاب، ونعود إلى أسباب الانقسام، ونبحث عن الوسائل التى تضع نهاية لذلك. فنضع نهاية لهذا الصّدد الذى يزداد باستمرار - حتى فى الغرب نفسه - بين يملكون ومن لا يملكون.

وهكذا سنستطيع أن نقدر المشكلة تقديراً حقيقياً: إنها مشكلة الفقر والجوع الذى يعصف بملايين المستعمرين، والبطالة فى البلاد الصناعية، والهجرة (التي ما هى إلا انتقال عالم الفقر والجوع إلى عام البطالة والإقصاء)؛ وهذه

المشكلات تجسدها مشكلة واحدة هي «العولمة»: وهي اسم مرادف لطموحات الهيمنة العالمية لدى الولايات المتحدة والتابعين لها، الذين يقودوننا - في القرن الواحد والعشرين- إلى انتحار كوني.

وكلمة الغرب هذه كلمة مرعبة- فالألمان يقولون Abendland أى بلاد الظلام.

مالذي نجنه اليوم من حضارتنا المنحطة؟

ويؤكد «بول فاليري - Paul Valéry» أن ثلاثة تقاليد شكّلت أوروبا:

- المسيحية وبأكثر دقة الكاثوليكية، في المجال الأخلاقي.
- التأثير المستمر للقانون الروماني في مجالات القانون والسياسة والدولة.
- التراث الإغريقي في مجال الفكر والفنون.

ولماذا نفصل هذه «التيارات» الثلاثة عن مصادرها؟ لأنه هكذا يتولد الإيهام بأن الغرب ما هو إلا بداية مطلقة (ليس قبله شيء)، وأنه ظهر كنبّة قد نمت عن تتبع جذورها، نبتة منعزلة ووحيدة كنوع من المعجزة التاريخية.

إن ذلك بمثابة إنكار لما هو جوهري:

فإن ما اتفق على تسميته غربًا، ولد في العراق ومصر، أى في آسيا وأفريقيا.

أ- أسطورة الاستثنائية العبرية

ثبت من خلال الكتابات الهيروغليفية في مصر والمسمارية في العراق، أنه في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد، العصر البرونزي القديم، جاءت هجرات كثيفة من البلاد المجاورة (لا سيما شبه الجزيرة العربية) إما بسبب موجات الغزو أو بعد التغيرات المناخية التي أصبحت تلك البلاد.

ثم دخل المهاجرون إلى منطقة يمكن العيش فيها سُميت من ساعتها «الهلال الخصيب»، وهي تمتد من العراق إلى مصر. وكان الأراميون هم أول من

وصلوا إلى هناك واستقروا في الأرض التي هي الشام الآن، وشكلوا مركز حضارة في البلد التي سميت بداية من أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد ببلاد كنعان^(١).

ثم جاءت هجرات البدو العبرانيين متأخرة، واندمجوا بشكل عام سلمياً مع السكان الأصليين الذين لا يمكن مواجهتهم عسكرياً؛ لأنهم كانوا متحضرين وأنشأوا المدن المحصنة.

وفي ضوء تقدم علم الآثار، فإن تاريخ العبرانيين المزعوم - كما أراد حاخامات دولة إسرائيل، الأكثر إظلامية، أن يستخدموه لتبرير ملكيتهم لما يعتبرونه أرضهم الأصلية التي وهبها الله لهم - لا يظهر إلا كـ «أسطورة» محضة. وهذه هي كل الشرعية التاريخية لـ «دولة إسرائيل الحالية» التي يمكن أن توصف بوضوح بالأسطورية. وهذا وصف أعطاه لها المؤرخون الإسرائيليون الذين نستطيع أن نتذكر قولهم الجريء: «لا يوجد منذ نشأة دولتنا حتى وقتنا الحاضر إلا أسطورة؟»^(٢).

ويعتبر ذلك حقيقياً: فليس هناك أى دليل أثرى أو وثيقة غير توراتية تتيح لنا تأكيداً تاريخياً.

ويعترف أحد العلماء المهتمين بالحفاظ على تاريخية التوراة مثل ر. دى فو ومعه كل الباحثين الآخرين بما يلي:

«لا نجد فى أى مكان إشارة واضحة إلى العبرانيين، أو إلى الإقامة فى مصر، أو الخروج، أو حتى إلى غزو بلاد كنعان، وفشلنا كثيراً فى أن يقطع هذا الصمت آثار جديدة»^(٣).

وقد أرادت أديان الغرب المسيحى أن تجعل من تاريخ القبائل العبرية «تاريخاً

(١) رونالد دى فو: تاريخ إسرائيل القديم (الجزء الأول): من البداية حتى الاستقرار فى أرض كنعان، باريس، جان، جابالدا وسى، ١٩٧١م، ص ٥٨.

(٢) بينى موريس، راجع الفصل الأول من كتاب بينى موريس.

(٣) ر. دى فو. سبق ذكره، ص ١٥٤.

عالمياً»، حتى إن بوسويه فى القرن السابع عشر رأى فى إله بنى إسرائيل الإله الحقيقى الذى يملك السموات وتتوقف عليه الإمبراطوريات^(١).

وما هذا التاريخ إلا نتيجة لمزيج تلفيقى من تقاليد الشعوب البدوية القادمة من شبه الجزيرة العربية. وكان المناخ فى تلك المنطقة يزداد جفافاً وتصحراً، فاتجهوا نحو ما يسمى بالهلال الخصيب، حيث وجدوا فيه المرعى الدائم لأنعامهم والإمكانات المثلى للتحضر.

وهكذا - لا نذكر إلا المثال الأكثر دلالة - فإن ما كان يمثل - وفقاً للتوراة - صعود قوة إسرائيل، ليس صحيحاً، حيث لا يظهر اسم داود ولا تاريخه فى أى مصدر غير التوراة، لا فى نص ولا فى نقش، ولا فى بقايا أثرية.

والتوراة وحدها هى التى تعطينا سيرة مفصلة (صموئيل ١، صموئيل ٢)، ولا يوجد أى مصدر آخر غير الكتاب المقدس، ولا أى بقايا أثرية تخص وجود وحياة داود المثيرة. ومع ذلك، فمنذ ثلاثين قرناً وحتى «كتاب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية» الصادر عام ١٩٩٢م الذى أصدره البابا يوحنا بولس الثانى، نقرأ (فى كتاب التعاليم ص ٣٥، ١٠٥) ما يلى:

«تحكم كنيستنا، على كل الكتب بالقدسية سواء كانت من العهد القديم أو العهد الجديد، بكل أجزائها، فالله عندهم هو المؤلف».

وقد شملت التعاليم ص ٣٨، ١٢٠ كتابى صموئيل وكتابى الملوك كجزء ثابت من الكتاب المقدس ص ١٢١.

ويأخذ كتاب التعاليم فى اعتباره حكم صموئيل (صموئيل ١٣-١٤) الذى يرى أن داود رجل بقلب إله، وهكذا يلحق يسوع بنسب داود (كتاب التعاليم ص ٩٩، ٤٥٥)، حسب أنجيل متى (١٦/١).

(١) بوسويه: خطاب حول التاريخ العالمى: «إن الإله الحق هو إله إسرائيل؛ هذا الإله الواحد الصمد» ص ٢٧١. «ولكن تذكر ياسيدى أن هذا التسلسل الطويل للأسباب الخاصة التى تبني وتنهى الإمبراطوريات، يتوقف على أوامر سرية للعناية الإلهية، فالله، فى السموات العلى، يملك مقاليد كل الممالك» ص ٥٥٨ الجزء الثالث، الفصل السابع.

نسب يسوع المسيح

هذا سجل نسب يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم: إبراهيم أنجب إسحق. وإسحق أنجب يعقوب. ويعقوب أنجب يهوذا وإخوته. ويهوذا أنجب فارص وزارح من ثامار. وفارص أنجب حصرون. وحصرون أنجب أرام. وأرام أنجب عميناداب. وعميناداب أنجب نحشون. ونحشون أنجب سلمون. وسلمون أنجب بوعز من راحاب. وبوعز أنجب عوبيد من راعوث. وعوبيد أنجب يسي. ويسي أنجب داود الملك. وداود أنجب سليمان من التي كانت زوجة لأوريا. وسليمان أنجب رحبعام. ورحبعام أنجب أييا، وأييا أنجب آسا. وآسا أنجب يهوذاشافاط. ويهوذاشافاط أنجب يورام. ويورام أنجب عزيا. وعزيا أنجب يوثام. ويوثام أنجب أحاز. وأحاز أنجب حزقيا. وحزقيا أنجب منسى. ومنسى أنجب آمون. وآمون أنجب يوشيا. ويوشيا أنجب يكنيا وإخوته فى أثناء السبى إلى بابل. وبعد السبى إلى بابل، يكنيا أنجب شألثيل. وشألثيل أنجب زربابل. وزربابل أنجب أبيهود. وأبيهود أنجب ألياقيم. وألياقيم أنجب عازور. وعازور أنجب صادوق. وصادوق أنجب أخيم. وأخيم أنجب أليود. وأليود أنجب أليعازر. وأليعازر أنجب متان. ومتان أنجب يعقوب. ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح. فجملة الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً؛ ومن داود إلى السبى البابلى أربعة عشر جيلاً؛ ومن السبى البابلى إلى المسيح أربعة عشر جيلاً. وهكذا يدخل يسوع فى نسب داود المسيحى (كتاب التعاليم ص ٩٩، ٤٤٥).

تعتبر حياة داود فى تناقض كبير مع حياة المسيح.

فمثلاً يحكى سفر صموئيل الأول كيفية زواج داود من ابنة الملك/النبي شاول: ... فأجاب داود «من أنا وما هى حياتى؟ وما هى عائلتى وما هى مكانة عائلتى فى إسرائيل حتى أصبح صهراً للملك؟» (١٨ : ١٨) «أتظنون مصاهرة الملك أمراً تافهاً؟ أنا لست سوى رجل مسكين فقير... فقال شاول لهم:

هذا ما تقولونه لداود: إن الملك لا يطمع فى مهر بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين، انتقاماً من أعداء الملك... وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له، انطلق مع رجاله وقتل مائتى رجل من الفلسطينيين وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهراً لمصاهرة الملك، فزوجه شاول عندئذ من ابنته ميكال» (١٨ : ٢٣ - ٢٧).

أما زواج داود من امرأة أوريا الحثى، فقد حكاها سفر صموئيل الثانى كما يلى: .. وفى إحدى الأمسيات، نهض داود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره، فشاهد امرأة ذات جمال أخاذ تستحم.. فأرسل داود من يتحرى عنها، فأبلغه أحدهم: هذه زوجة أوريا الحثى، فبعث داود يستدعيها فأقبلت إليه وضاجعها... وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود.. فوجه داود إلى يوباب: أرسل إلى أوريا الحثى... وحين مثل لدى داود استفسر منه عن سلامة يوباب والجيش والحرب.. ثم قال لأوريا: امضى إلى بيتك واغسل رجلك.. غير أن أوريا لم يتوجه إلى بيته بل نام مع رجال الملك عند باب القصر فأخبروا داود فسأله داود: ألم ترجع من سفر؟ فلماذا لم تمض إلى بيتك؟ فأجاب: التابوت وجيش إسرائيل ويهوذا معسكرون فى الخيام، وكذلك سيدى يوباب.. فهل أتى أنا إلى بيتى لآكل وأشرب وأضاجع زوجتى؟ أقسم بحياتك لن أفعل هذا الأمر.

مقتل أوريا

وفى الصباح كتب داود رسالة إلى يوباب بعث بها مع أوريا، جاء فيها: اجعلوا أوريا فى الخطوط الأولى.. ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه...

تبليغ داود بمقتل أوريا

فانطلق الرسول إلى داود وأطلعه على آخر أنباء الحرب... ومات عبدك أوريا.

سفر صموئيل الثانى (١١ : ٢ - ٢٥)

ثم تتكلم بقية الآيات عن زنا ابن داود بأخته (أمنون يغتصب ثامار أخت

أبشالوم)، وقاتل داود تارة ضد الفلسطينيين، وتارة طلبه من الفلسطينيين أن ينضم إليهم في قتالهم ضد العبرانيين، ولكن الفلسطينيين رفضوا، ثم قتاله المستمر مع الجشوريين، والجرزيين، والعمالقة... «وهاجم داود سكان الأرض فلم يستبق نفس واحدة... واستولى على الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب... ولم يكن داود يستبقى رجلاً أو امرأة على قيد الحياة» صموئيل الأول (٢٧: ٨-١١). بل قاتل يهود ضد بيت شاول الملك/النبي، وأخيراً قاتل داود ابنه أبشالوم، الذى عاشر محظيات أبيه داود. ولا ننسى بالطبع أن داود قاتل الفلسطينيين ثانياً، والموآبيين.

وبعد ذلك قابل في جولاته امرأة جميلة تدعى أيبجال كان زوجها نيبال قد مات، فتزوجها داود (صموئيل ٢٥: ٣٩)، «وهذا سجل بمواليد داود الذين أنجبهم في حبرون: بكره أمنون من اخينوعم اليزرعيلية، ثم دانييل من أيبجال الكرملية، والثالث أبشالون بن معكة بنت تلماي ملك جشور، والرابع إدونيا بن حجيث والخامس شفطيا من أبطال، والسادس يثرعام من عجلة زوجته. فكانت جملة المولودين له في حبرون ستة أبناء... أما الذين أنجبهم في أورشليم فهم: شمعى وشوباب وناثان وسليمان، وهؤلاء الأربعة ولدتهم بشبع بنت عمثيل، وكان له تسعة أبناء آخرون... وجميعهم أبناء داود ما عدا أبناء المحظيات. سفر أخبار الأيام الأول (٣: ١-٩).

وبعد سبع سنوات وستة أشهر من الحكم فى الخليل، واصل داود أعماله الكثيرة فى القدس التى حكمها ثلاثاً وثلاثين سنة.

تلك هى قائمة أعمال داود التى طبقاً لها قال بولس عام ١٩٩٢م إننا نستطيع أن نعرف فى عيسى على صفات ابن داود الأساسية. (تعاليم ١٩٩٢م، ص ٩٨). وهو «ابن الله فى قوته» (تعاليم ١٩٩٢م، ص ٩٩). وهو «عيسى مخلص بنى إسرائيل» (تعاليم ١٩٩٢م، ص ٩٩). «وهو خليفة داود ويتمتع بجميع صفاته الرئيسية» (تعاليم ١٩٩٢م، ص ١٠٥).

وتعتبر وفاة «سليمان» أول حدث يمكن أن يؤرخ له فى تاريخ إسرائيل. لأننا يمكن أن نقيم منه علاقة تاريخية مقارنة بتاريخ الإمبراطورية الآشورية الجديدة. وقد تجمعت الأدلة فى الواقع منذ أكثر من قرن لتأتى على كل أساطير «الاستثنائية العبرية واحدة واحدة».

أما فترة حكم سليمان والتي وصل تاريخها إلينا مجزئاً عبر التراث الشفاهى، فقد بدأ كتابتها وتأليفها فى شكل تاريخ متناسق. وقد تم أول جمع لهذا التاريخ على يد من سمّاه المفسرون بـ «اليهوى - Yahvist» فى القرن العاشر وسيكتمل بعد ذلك.

أما التراث الذى يوحى بأن إسرائيل قد تكون نشأت كهوية تاريخية منذ بداية الألفية الثانية (عصر إبراهيم الخليل)، وأنها يمكن أن توصف بالموحدة منذ هذا الوقت، هذا التراث لا يتفق مع الحقيقة التاريخية.

كان الاتجاه نحو التوحيد ثمرة إغداد طويل تكون فى مجمله فى الشرق الأوسط، من العراق إلى سوريا وفلسطين ومصر.

وقد يكون الخطأ ونحن نتحدث عن «الاستثنائية التوراتية» أن نفصل التوراة الكنعانية^(١) عن مجمل التأثيرات الروحية للشرق الأوسط. حيث إن ذلك فقط يتيح لنا أن نقيم «وصايا كنعان»^(٢): فإن كلمات وتعبيرات وجمل كاملة من التوراة العبرية، تبدو فجأة فى نصوص القرن الرابع عشر قبل الميلاد .. وستوضح اللوحات الأوجارية الخلفية الكنعانية للعهد القديم التى أدركها بعض المفسرين والمؤرخين منذ وقت طويل^(٣).

وكان هناك خلال المواجهات الأولى بين الكنعانيين والعبريين رفض متبادل

(١) أخذ هذا التعبير من عنوان كتاب هـ.أ. ديل ميديكو: التوراة الكنعانية فى نصوص رأس شمرة، بايو، ١٩٥٠م.

(٢) وهذا عنوان كتاب آخر قيم وهو لـ «جان جري» عنوانه «وصايا كنعان» ليدن، بريل، ١٩٥٧م.

(٣) «أديان الشرق الأوسط» نصوص بابلية وأوجارية وحيثية مقدسة، قدمها كل من لابات، كاكوه، سزيسر وفييرا، دار النشر فيار ودينويل (سلسلة: كنوز الإنسانية الروحية)، باريس، ١٩٧٠م، ص ٣٧٥.

بين المؤمنين بيهوه والمؤمنين بإيل، ثم جعل العبريون الذين جاءوا إلى بلاد كنعان هوية إلههم مشابهة لآلهة أصحاب البلاد الأصليين حتى أنهم أخذوا اسمه وهو «إيل» الذي يجمع على «إيلوهيم»^(١).

كما نجد أن صفات الآلهة والطبيعة والتاريخ تختلط أحياناً. فمثل «بعل» عند الكنعانيين، يحمل يهوه لقب «الله». أبو اليتامى وقاضى الأرامل» (المزامير ٥/٦٨)؛ ككل آلهة الخصوبة، فهو الذى يعطى «القمح والخبز والزيت» (هوشع ٢: ٨) ومثل بعل، إله المجد أرعد (المزامير ٢٩/٣-٤). ومثل الإله - إيل أوجاريت، يرتقى إله العهد القديم العرش ويقرر فى وسط ساحة الآلهة: «الله يترأس ساحة قضائه، وعلى القضاة يصدر حكماً» (المزامير ٨٢/١).

ولا يعتبر هذا الدمج مفاجئاً، إذ إن العبرانيين قد أخذوا - خلال عملية تحضرهم فى بلاد كنعان - «اللغة الكنعانية» مكان لهجتهم؛ وقد تعلم هؤلاء البدو من الكنعانيين الكتابة الهجائية التى أتاحت لهم الانتقال من التراث الشفاهى إلى الكتاب فى القرن العاشر قبل الميلاد. وقد تعلم البدو العبريون كذلك من الكنعانيين الزراعة، وأصبحت طريقة حياتهم متشابهة أكثر فأكثر حتى كثرت الزيجات المختلطة. ويشهد بذلك لعنات كبار الكهنة بداية من القرن العاشر: «وليكن كنعان ملعوناً وليكن عبد العبيد لإخوته» (سفر التكوين ٩/٢٥)*.

(١) ف. ألبريت: من العصر الحجري للعالم المسيحى. الوجدانية والتطور التاريخى، دار النشر بابو، باريس، ١٩٥١م، ص ١٥٦.

(*) القصة كما جاءت فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع:

لعن كنعان ومباركة سام

واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته. فشاهد حام أبو الكنعانيين عرى أبيه، فخرج وأخبر أخويه الذين كانا خارجاً فأخذ سام وياث رداءً ووضعاه على اكتافهما ومشيا القهقرى إلى داخل الخيمة وسترا عرى أبيهما ممن غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: ليكن كنعان ملعوناً وليكن عبد العبيد لإخوته. ثم قال: تبارك الله إله سام وليكن كنعان عبداً له. ليوسع الله لياث فيسكن فى خيام سام. وليكن كنعان عبداً له» سفر التكوين ٩: ٢٠-٢٧.

ويلاحظ القارئ أن نوح لعن أبناء حام الكنعانيين، وليس حام نفسه على فعله (كما يلاحظ بالطبع سكر نوح). وأصبح لعن الكنعانيين ومباركة الساميين أسطورة جديدة من أساطير التراث اليهودى، تضاف لأسطورة الشعب المختار، وأسطورة أرض الميعاد.

الزواج من الآخر وعقد معاهدات معه

يرجع تنظيم ذلك لأوامر إلهية، فجاء فى سفر التكوين «وبارك الرب إبراهيم فى كل شئ»، وقال إبراهيم لرئيس عبده: . . فاستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ لابنى زوجة من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم وسطهم». (٢٤ : ٢ - ٣).

ثم تكرر ذلك فى سفر الخروج «إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض لأنهم حين يعبدون إلهتهم مشركين ويذبحون لهم، يدعونكم فتأكلون من ذبيحتهم وتزوجون بنيكم من بناتهم، فيغوين بعبادة آلهتهن ويجعلن بنيكم يغوون أيضاً بعبادة آلهتهن» (٣٤ : ١٥ - ١٦).

ما الذى يهمنى إذن فى أن يكون بطل قصة عائلة إبراهيم أسطورياً أو حقيقياً؟ إن الإيمان لا يتوقف على مثل هذا الاختيار الذى قد يؤكد أو يلغى أى كشف أثرى. إن الإيمان هو اليقين فى أن الإنسان يمكن أن يؤدى - فى عالمه الأرضى - «أعمال اللانهاى» كما كتب كيركجارد فى تأمله الرائع حول «إبراهيم فارس الإيمان»^(١)، وانطلاقاً من هذا اليقين، تأتى إرادة أن نجعل من أفعالنا إجابة على دعوة الله وفقاً لنموذج ونمط تضحية إبراهيم.

وبهذا يتحرر البحث التاريخى من أى مفهوم وضعى للدين (اليهودى أو المسيحى أو الإسلامى) الذى قد يفصل الإيمان عن الفعل، وينسى أن الإيمان هو الإرادة والعمل وليس القول فقط، وليس الخضوع للأحوال السارية - أى الأمر الواقع - ولكنه على العكس من ذلك خضوع لدعوة الله لنتزع أنفسنا من الأمر الواقع ونتخطاه لنخلق مستقبلاً ذا مظهر إنسانى وإلهى^(٢).

(١) سورين كيركجارد: «خوف وزلزلة»، الأعمال الكاملة، ١٩٧٢م ص ١٠٤ - ١٤٥.

(٢) وليست هذه الملحوظات التمهيدية إلا «استطرادات لاهوتية». فهى ضرورية مطلقاً فى أى تاريخ لفلسطين. لكى لا نخلط بين البحث العلمى وانتهاك الحرمات، وسواء كان النص التوراتى بلا «أساس» تاريخى أو حتى متناقضاً تناقضاً تاماً مع الآثار، فإنه لا علاقة له بالإيمان، اليهودى أو المسيحى أو الإسلامى. ولكى نحرر البحث العلمى، فإن الأمر يتعلق فقط بعدم الخلط بين الواقع التاريخى وحقيقة الإيمان.

وقد أثبتت التآريخات التالية - كما يذكر الأب دى فو - أن «الإسرائيليين عندما وصلوا فى القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح إلى أريحا، لم يستولوا عليها بحرب، لأنها لم تكن موجودة فى ذلك العصر»^(١).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لسقوط عاى على يد يشوع - سفر يشوع (٨: ١ - ٢٩) وتنتهى قصة غزو المدينة بالعبارة التقليدية: رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عاى وقتلوا كل من فيها، فكان جميع من قتل فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً وهم جميع أهل عاى... أما البهائم وغنائم المدينة فقد نهبها الإسرائيليون لأنفسهم بمقتضى أمر الرب الذى أصدره إلى يشوع، وهكذا أحرق يشوع عاى وحولها إلى تل خراب أبدى إلى هذا اليوم.

يقول الأب فو: «من كل قصص الغزو، تعتبر هذه القصة هى الأكثر تفصيلاً، حيث لا تحتوي على أى عنصر خارق وتبدو كما لو كانت أكثر واقعية. ولسوء الحظ فقد أنكرها علم الآثار... ولم يكن هناك مدينة فى عاى لحظة وصول الإسرائيليين إليها، بل كان هناك أطلال قديمة ترجع إلى ألف ومائتى عام»^(٢).

وتتفوق نزاهة المؤرخ وعالم الآثار فى هذا الكتاب الرائع للأب دى فو على الأمل الشديد فى أن نُشهد التاريخ على صحة القصة التوراتية.

كما نجد مشاعر مماثلة عند غالبية من أرخوا لفلسطين. فهذا إيمانويل أناتى يكتب على سبيل المثال: «من المدهش أننا لا نجد فى أى نص مصرى أثراً ما أو حتى أى إشارة إلى إقامة العبريين (اليهود) الطويلة هذه فى بلاد الفراعنة»^(٣).

وقد يكون ممكناً كذلك أن نشعر بنفس «الدهشة»، إذا لاحظنا عدم وجود أثر خارج العهد القديم، للخروج من مصر الذى غرقت خلاله جيوش فرعون

(١) ر. دى فو: «تاريخ إسرائيل القديم»، دار النشر جبالدا، ١٩٧١م، ص ٥٦٢.

(٢) نفسه ص ٥٦٥.

(٣) سبق ذكره ص ٣٨٩.

بعد معجزة عبور العبريين الذين انشق أمامهم البحر. كما لا نجد أى إشارة فى النصوص المصرية لأى حدث مهم مثل فناء جيش ما، بينما لا يوجد فى تقارير حرس الحدود فى تلك الفترة ذكر لعبور قبائل بدوية صغيرة^(١).

لماذا تملك «أناتى» الدهشة؟

ميلاد الوحدانية فى «الهلال الخصيب» ومصر

تقول الأناشيد الهندية «فيداس - Védas» التى تعتبر رائدة الاتجاه إلى الوحدانية عن فارونا الإله الأعظم: «إنه واحد وأسماءه كثيرة».

ولم يكن العبرانيون أول من ابتدأ الوحدانية، فخلال قرون من الشُّرك القبلى لم يستبعدوا وجود آلهة أخرى، ولكنهم اعتبروا إلههم هو الأقوى والضامن للنصر، ومن المستحيل أن نستوثق من صحة قصص التوراة أو أباطرة الصين البدائية الأسطورية أو من «پول قوه Pual Vuh» معبود الهنود الأمريكيين. أما فى حالة إسرائيل، فقد اعتُبرت الأسطورة تاريخاً لا سيما منذ أن وضعت الكنيسة التاريخية يدها على التراث العبرى، واعتبرت نفسها الوريث الحقيقى لإسرائيل. وإلى جانب ذلك، فإن أى قراءة للتوراة نفسها تظهر ما بها من تناقض.

ولم يكن اليهود إلا جزءاً من الهجرة الأرامية: «كان أبى أراميا تائهاً، ثم انحدر إلى مصر وتغرب هناك ومعه نفر قليل، ولكنه أصبح هناك أمة كبيرة» (سفر التثنية، ٥/٢٦)، بينما يجعل سفر التكوين (٥/٢٩) من «لابان بن ناحور الآرامى» خال وصهر يعقوب. كما يتحدث النبى حزقيال عن القدس قائلاً: «وقل هذا ما يعلنه السيد الرب لأورشليم: أصلك ومولدك من أرض الكنعانيين».

(١) والمثال هو: بردية أناستازى، رقم ٦، ٥١ - ٦١ والمذكورة فى «نصوص من الشرق الأوسط القديم وتاريخ إسرائيل الذى كتبه برياند وسو، دار النشر، دى سيرف، ١٩٧٧م، ص ٦٨ وكذلك فى «نصوص من الكتاب المقدس ومن الشرق» دار النشر ديلاشو ونيسليه، نيوشاتيل، ١٩٦١م، ص ٤٢.

أبوك أموري وأملك حثية» (سفر حزقيال، ١٦ : ٣). وقد امتد هذا الخليط العرقي الذي يستبعد المحافظة على عرق واحد ليتحول إلى خليط ثقافي. ولم يكن الإله الذي مجده اليهود مختلفاً عن «بعل» شعوب «الهلال الخصيب» الأخرى، تلك التي وُضعت فيها بذرة فكرة التوحيد منذ وقت طويل.

ولم يظهر ما نسميه بالتوراة الكنعانية إلا اعتباراً من عام ١٩٢٩م مع أول الإصدارات عن اكتشاف «رازشامرا Raz Shamra» لا سيما بعد اكتشاف بعثة باولو ماثيائي الإيطالية لسبعة عشر ألف لوحة في قصر «إلبا» بسوريا^(١).

ويتضح بجلاء في هذه التوراة أن الكنعانيين (بما فيهم اليهود) استقبلوا بحماسة شكل الوحدانية الجديد الذي وضعه إخناتون، والذي أصبح الرجوع إليه ممكناً بعد اكتشاف لوحات تل العمارنة في مصر. ويبدو المزمور رقم ١٠٤ كما لو كان مستوحى بكامله من «نشيد الشمس» لإخناتون الذي محى من على واجهات المعابد جمع كلمة «إله». وها نحن نجده يقول في نشيده إلى آتون في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أو قرن قبله: «أنت الواحد. خلقت كل موجود».

وقد ذُكر في قصيدة الخلق البابلية كذلك ما يلي: «إذا كان كل البشر قد تفرقوا بشأن الآلهة فإننا نقول: «إنه هو إلهنا بكل الأسماء التي سميناهم إياه». ثم احتكر التراث الكهنوتي العبري هذا التطور الناضج للوحدانية من العراق إلى مصر، وكتب التاريخ بروح عرقية ضيقة، حيث جعل من فلسطين مركز الخلق، ويردد سفر التثنية (١٢/٥، ١٢/٢١، ١٦/٢) بشكل مرهق أن القدس هي «المكان الذي اختاره الرب إلهكم ليضع عليه اسمه» رغم أن «يشوع» يضعه على جبل عيبال (سفر يشوع، الإصحاح ٨ : ٣٠-٣٥) وإرميا في شيلوه (سفر إرميا الإصحاح : ٧ : ١٢).

ويطرح نشيد الخروج السؤال الآتي:

فمن مثلك يا رب بين كل الآلهة؟ (سفر الخروج الإصحاح : ١٥ : ١١).

(١) هـ. أ. ديل ميديكو: التوراة الكنعانية المكتشفة في نصوص راز شامرا، باريس، بايوه، ١٩٥٠م.

يستمد موضوع «تخصيص بلد» التوراتي، أصله من «الوعد الأبوي» من الله لإبراهيم وفقاً لسفر التكوين:

وقال الرب لأبرام: أترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك، واذهب إلى الأرض التي أريك فأجعل منك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركك وألعن لاغيك وتتبارك فيك جميع أمم الأرض» سفر التكوين الأصحاح ١٢: ١-٣.

فعندما تابع «ألبير دي بوري - Albert de Bury» الأستاذ في جامعة چنيف البروتستانتية في أطروحته المكونة من مجلدين، أبحاث كبار المفسرين المعاصرين المنشورة عن تاريخ إسرائيل بين عامي ١٩٥٤م و١٩٧١م أمثال «ألبريخت أت - Albrecht Att» و«مارتين نوث - Martin Noth» و«جيرهارد فون راد - Gerhard Von Rad» و«فرانسواز سميث - Fransoise Smith» و«لو. ب دي فو - Le P.de Vaux» توصل إلى النتائج التالية:

اعتبر ويعتبر غالبية المفسرين «الوعد الإلهي» في تعبيره التقليدي كما جاء في سفر التكوين «وقال الرب لإبرام بعد أن اعتزل عنه لوط: ارفع عينيك وتلفت حولك من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، فإن هذه الأرض التي تراها سأعطيها لك ولذريتك إلى الأبد» الأصحاح ١٣ : ١٤-١٥، «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاق قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرت» الإصحاح ١٥ : ١٨، كنوع من إعطاء الشرعية بعد الحدث للغزو الإسرائيلي لفلسطين أو بتحديد أكثر لجعلها امتداداً للسيادة الإسرائيلية خلال حكم داود. وبكلمات أخرى، فإن الوعد يمكن أن يكون قد أُدخل في القصص الأبوية ليُجعل من «ملحمة الأجداد» مقدمة وبشارة للعصر الذهبي مع داود وسليمان^(١).

(١) أ.دي بوري: الوعد الإلهي وأسطورة العبادة في قصة يعقوب، باريس، جس جبالدا وِسي، ١٩٧٥م.

ونستطيع الآن أن نحصر بشكل مختصر أصول الوعد الأبوى:

١- لقد صدر الوعد بالأرض الذى يعتبر وعداً بالتحضر والمدنية أولاً لجماعات من البدو الخاضعين لحياة التنقل حسب المراعى، والذين يرغبون فى الاستقرار فى مناطق مأهولة، وبهذا الشكل يعتبر الوعد جزءاً من التراث الدينى والقصص لمجموعات قبلية مختلفة .

٢- لم يكن هدف الوعد البدوى هو الغزو السياسى والعسكرى لمنطقة من المناطق أو لبلد من البلاد.

٣- وعندما تجمعت القبائل البدوية التى استقرت مع قبائل أخرى لتكون «شعب إسرائيل»، أخذت الوعود القديمة بُعداً جديداً- فبعد أن حققوا هدف الاستقرار، أخذ الوعد بُعداً سياسياً وعسكرياً و«قومياً»، وكان أحد المعطيات الأساسية فى البلاد التى يعيش فيها البدو الرحل هو أن يجدوا أرضاً بعد فترة الترحال. ومن هنا نستطيع أن نتكلم عن عالمية أساطير «الوعد» التى يوضع فى إطارها الوعد الخاص بأرض كنعان.

ولكى ندرك ذلك فى الشرق الأوسط، من العراق إلى مصر مروراً بالحثيين، فإن جميع الشعوب قد أخذت وعوداً مشابهة.

وككل أبعل (آلهة) الشعوب الرحالة، فإن أى إله يعد الراعى بالأرض عند عودته، يرسم له فيها مثل كل آلهة المنطقة الحدود. ويرتبط استقرار القبائل البدو أو الرحل فى الأرض عند جميع الشعوب -خصوصاً فى الشرق الأوسط- بالسيطرة على الأرض التى وعدهم بها إلههم.

ففى مصر وعلى مسلة الكرنك التى أقامها تحتمس الثالث بين عامى ١٤٨٠م و١٤٧٥م قبل الميلاد ليحتفل بالانتصارات التى أحرزها على طريق غزة، مجيدو وقادش حتى نهر الفرات، نجد الإله يقول «سأعطيك - بقدرى- الأرض طولاً وعرضاً. لقد أتيت وسأجعلك تحتاح أرض الغرب».

أما فى العراق وفى اللوحة السادسة من قصيدة الخلق البابلية، التى قابلناها
نجد الإله «ماردوك» يعطى لكل نصيبه» (آية ٤٦) ولكى يرسخ العهد، أمر ببناء
بابل ومعبدها.

كما نجد بين مصر والعراق، الحثين يمجدون أريناً، إلهة الشمس قائلين:
«تحرصين أمن السموات والأرض وتقيمين حدود البلاد»

فإذا لم يكن اليهود قد تلقوا وعداً مماثلاً، فإنهم بذلك قد يمثلون استثناءً!

إله القوة والمعجزة

ليس هذا الإله إلهًا إلا لأنه يفى بعهده. ويلجأ لكل نوع من المعجزات
ليحقق ذلك، ولا يثبت ربوبيته إلا بذلك. فقد جاء فى بداية سفر الخروج أن
«فأمن الشعب» (الخروج ٣١/٤) بعد أن أظهر الله معجزتين «لصالح بنى
إسرائيل».

فعند خروجهم من مصر، أمد الرب لهم يده و«انفلق البحر» (الخروج
١٤/٢٢)، أما بنو إسرائيل فقد ساروا فوق أرض يابسة وسط مياه البحر
وكانت المياه كسورين عن يمينهم وعن شمالهم، وارتدت المياه وأغرقت المركبات
والفرسان وكل جيش فرعون الذى لحق بهم إلى البحر» (١٤/٢٨).

ويوضح لنا علم الآثار أحياناً «سياق» هذه القصص الملحمية: وهذا يؤكد-
وهو حقيقى من وجهة نظر التوراة- أن التراث الشفاهى والأساطير تركز بعامة
على نسيج تاريخى واقعى. أضف إلى ذلك أن علم الآثار غالباً ما ينكر
شطحات سفر «يشوع - Josué»، فعلى سبيل المثال: أريحا وعاءى- كما رأينا-
لم تعد أى منهما موجودة عندما دمرها يشوع.

وعندما وضعت «كاتلين كينيون - Katheleen Kenyon» قائمة بأبحاثها
الأثرية، أكدت ما يلى: «إن إحدى أهم الصعوبات التى تواجهنا ونحن نضع
تاريخاً زمنياً لدخول الإسرائيليين (أبناء إسرائيل)، إنه لا يوجد شىء فى أى

موقع يجعلنا نقول أن هناك دليلاً مادياً على وصول شعب جديد». وتخلص الباحثة إلى أن «علينا القبول بأن مجموعات بنى إسرائيل التى وصلت إلى هذا المكان، كانت فى أساسها من البدو الرحل الذين يأخذون أمتعة من سبقوهم على هذه الأرض عندما يستقرون عليها. أما الثقافة الفلسطينية فكانت فى أساسها كنعانية»^(١).

وهكذا ولد مفهوم التاريخ الذى تشكل خلال قرون من الوعد والقوة (القاهرة)، والذى شكّله السحرة الذين يتباهون بانتصارات إله أقوى من آلهة الجماعات القبلية الأخرى.

سيوضح سفر الأنبياء أن الأحداث المأساوية تقع بتقدير إلهى، وأنه عندما غزت الإمبراطوريات قبائل بنى إسرائيل وعذبتهم، كان الخطأ يرجع إلى كفرهم وعصيانهم الله. وطبقاً لوجهة النظر هذه، فإن حكّام إمبراطوريات الشرق كانوا أدوات ضرورية لتحقيق أهداف «يهوه»: فكان ملك الآشوريين القوى المخيف «قضيّب غضبى الحاملين معهم عصا سخطى». سفر إشعياء (٥/١٠)؛ ثم لعب الملك البابلى الجديد نبوخذ ناصر دوره فى هذه المأساة «والآن قد عهدت بجميع هذه الأراضى إلى نبوخذ ناصر ملك بابل عبدى: فتستبعد له ولابنه ولحفيدته جميع أمم الأرض... ولكن إن أبت أية أمة أو مملكة الاستعباد لنبوخذ ناصر ملك بابل... فإنى أعاقبها بالسيف والجوع والوباء إلى أن أبيدهم بيده» سفر أرميا (٢٧: ٦-٨). وعلى العكس من ذلك، أصبح «قورش - Cyrus» ملك بلاد فارس، منفذاً أميناً (لأوامر) يهوه ومتمتعاً بحمايته: «شدّدْتُك مع أنك لم تعرفنى حتى يدرك الناس من مشرق الشمس ومغربها أنى أنا هو الرب وليس هناك آخر» سفر إشعياء (٤٥: ٥، ٦)، ويقول كذلك: «أنا أقمت كورُش ليجرى العدل وأنا أهد طرقة كلها فيبنى مدينتى ويطلق سراح أسراى» سفر إشعياء (٤٥: ١٣).

(١) كاتلين كينيون: الحمورايون والكنعانيون محاضرات سكوتش فى الاكاديمية البريطانية ١٩٦٣م أكسفورد، ١٩٦٦م ص ٥.

وقد جعلت الانتصارات والإبادات التي حققها موسى ويشوع من إسرائيل - ومن الدولة الصهيونية التي تدعى أنها ورثتها - شعباً مختلفاً عن الشعوب الأخرى. وقد أدى مفهوم «الشعب المختار» بالضرورة إلى رفض الآخر.

ويتأكد ذلك أحياناً على مستوى العلاقات الإنسانية، ولكنه يتأكد أكثر على مستوى العلاقات الدولية، حيث استطاعت إسرائيل باسم هذه الهيمنة الناتجة عن الاختيار الإلهي أن ترفض أكثر من مائتي مرة منذ نشأتها قرارات الأمم المتحدة، حتى تلك التي حازت الإجماع؛ وليست هذه القرارات إلا قوانين إنسانية بالقدر الذي تعتبر فيه مطالب الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين.

أما على المستوى الشخصي، فإن الانتماء إلى هذه العرقية الخاصة، كان يعطى لأقل الناس مكانة خاصة ويكسبه النبالة. وقد كتب إيلي فيزل (الحائز على جائزة نوبل) ذلك دون أن يرد عليه أحد، وتجراً على تأكيد ما يلي: «يعتبر اليهودي أقرب إلى الله من أي إنسان آخر»^(١).

«كتاب صلوات الحقد» وهو عنوان كتاب لأحد هؤلاء الذي يدعون إلى البصق على مقابر كل الشعوب الأخرى على طريقة الأمريكي «جولد هاجن - Gold hagen» الذي اعتبر كل ألماني نازياً^(٢) أو «برنارد هنري ليفي - Bernard Henri Lévy» الذي وصل إلى نتيجة مؤداها:

«تشهد الثقافة الفرنسية - من قولتير إلى بيجي . . بتاريخنا في الحقارة»^(٣)(*) .

النتائج التاريخية لأسطورة «الشعب المختار»

يؤدي مفهوم الملكية المطلقة، ملكية الله أولاً، ثم الملوك المتعلقة بالأولى باعتبارهم كهنة وملوك الرب، إلى إقصائية راديكالية، أو حتى إلى نوع من الكره الإلهي. ويعتبر «يهوه»، في المفهوم الوثني والقبلي للبرانيين الأوائل،

(١) إيلي فيزل: الاحتفال التلمودي، باريس، سوى ١٩٩٠م.

(٢) د. جولد هاجن: جلادو هتلر المتطوعون، باريس.

(٣) ب. ه. ليفي: أيديولوجيات فرنسية، ص ٦١.

(*) قال ذلك في معرض توبيخه للشعب الفرنسي بتهمة أنهم خانوا اليهود وتواطؤوا مع هتلر.

إلهًا «غيورًا»، فهو - فحسب - فى هذا المفهوم الذى طاله الشرك، أقوى الآلهة، وسيمنح النصر للقبائل التى يحميها والتى جعل منها «الشعب المختار» وفرض عليها حق، بل واجب إبادة كل الشعوب التى لا تشاركهم الإيمان به.

وتعتبر فكرة «الشعب المختار» أكثر الأفكار دموية فى التاريخ. فقد أوحى - بعد تطعيمها بمعارك يشوع الأسطورية - إلى الطّهرين^(*) البروتستانت الإنجليز الذين وصلوا إلى أمريكا، باستئصال الهنود، وجعلت أحد البوابات يتساءل: ما إذا كان الهنود يتمتعون بروح كالبيض. ثم قسم أراضيهم بين إسبانيا والبرتغال، فهذه الفكرة إذن أساس الكثير من أنماط الاستعمار.

وقد جعلت كنيسة القديس بولس بروما من نفسها وريثة لهذا «الاختيار الإلهي»، واعتبرت تدمير وذبح ملايين الهنود نوعاً من التنصير. نذكر هنا مثال البابا سانت دومانج عام ١٩٩٢م، الذى أثنى - فى «كومبستيل - Compostelle» - على أوروبا (المسيحية بطبيعتها) لـ «دورها الحضارى» فى العالم - وباسم هذا المبدأ كذلك، مارست الولايات المتحدة السياسة الاستعمارية، وتحاول إخضاع العالم لقوانينها تحت ذريعة «القدر المحتوم أو القدر المين» لـ «الشعب المختار» الجديد.

وعندما وصلت جماعة من المهاجرين الإنجليز من البيوريتانز المتزمتين الهاربين من الاضطهاد إلى «ماساشوستس - Massachusetts»، اعتبروا أن هدفهم هو إقامة «أرض ميعاد جديدة». ثم استقر هؤلاء المستعمرون - الذين سيكونون أبناؤهم فيما بعد الولايات المتحدة - فى بلد لم يكن لهم فيها أبداً تاريخ، واستندوا إلى الأسطورة التالية: «إن رحيلهم من إنجلترا يعتبر «خروجاً» توراتياً جديداً».

كانت أمريكا هى إذن «أرض الميعاد» لينشئوا عليها مملكة الله، وقد تأولوا

(*) طائفة من البروتستانت المتشددین، هاجروا من إنجلترا إلى هولندا، ثم من هولندا وانجلترا إلى أمريكا: الأرض الجديدة التى اعتبروها أرض الميعاد. ومن يريد الاستزادة، يمكنه قراءة «المسيح اليهودي» للكاتب الليبرالى رضا هلال، و«أرض الميعاد والدولة الصليبية» والتر ماكيدوجال، ترجمة رضا هلال.

هذه المهمة الإلهية ليبرروا مطاردتهم للهنود وسرقة أرضهم، حسب ما تُعلمه قصة يشوع التوراتية السابقة وما قام به من «إبادات» مقدسة، وها هو أحدهم يكتب ما يلي:

«بديهي أن الله دعا المستعمرين للحرب. والهنود مثلهم مثل قبائل العمالقة والفلسطينيين السابقين الذين تحالفوا مع آخرين ضد إسرائيل...»

- انظر ترومان: طُهرْيُو ماساشوستس: من مصر إلى أرض الميعاد «اليهودية» المجلد السادس عشر. جزء ٢، ١٩٦٧م.

وعندئذ أصبحت «أرض الميعاد» أرضَ غزو. ولم تتعارض ممارسة الطرد والتدمير والقتل مع المفهوم الديني، ذلك أن الغنائم والثروات كالنصر، يعتبران بالنسبة لهم دليلاً على مباركة إلهية.

ويحكى لنا «توكفيل - Tocqueville» أن مشرعى ولاية كونيتيكتوت الأمريكية في أعوام ١٦٤٠م - ١٦٥٠م أصدروا قانون العقوبات التالي، أخذاً من «الكتب المقدسة»:

«يحكم بالموت على كل إنسان يعبد إلهاً غير الرب».

وعندما أعلنوا استقلالهم عن إنجلترا، أعطى الأب المؤسس، جورج واشنطن، في خطابه الافتتاحي كرئيس للولايات المتحدة، الصيغة الكاملة التي ستصبح المبدأ الذي يحكم الولايات المتحدة حتى أيامنا هذه. يقول جورج واشنطن:

«ليس هناك أى شعب يلتزم أكثر من شعب الولايات المتحدة بشكر وعبادة «اليد الخفية» التي تتحكم فى شئون الناس. وتبدو كل خطوة وكأنها تقودهم إلى طريق الاستقلال الوطنى، وكأنها تحمل علامة تدخل العناية الإلهية».

وقد ابتكر آدم سميث تعبير «اليد الخفية» هذا ليتوج به نظريته الاقتصادية، حيث إنه إذا تبع كل فرد منفعته الخاصة، فإن المنفعة العامة ستحقق بالتبع. ولن يحقق هذا التناسق بينهما إلا «يدٌ خفية».

أما خليفة جورج واشنطن «جون آدمز - John Adams» فقد كتب فى عام ١٧٦٥م ما يلى:

«لن أكف عن الاعتقاد بأن تأسيس أمريكا ليس إلا إرادة العناية الإلهية لتعليم وتحرير قطاع كبير من البشرية التى ما زالت خاضعة للرق»، ويقول كذلك: «لقد أوجدت العناية الإلهية أمريكا لتكون مسرحًا يحقق فيه الإنسان مكانته الخاصة» (السيرة الذاتية، المجلد الأول، ص ٢٨٢).

أما الكاتب «هيرمان ميلفيل - Herman Melville» فى القرن التاسع عشر فيقول: «نحن - الأمريكيون - شعب خاص، شعب مختار، إسرائيل عصرنا، نقود سفينة الحريات» (أمريكا كحضارة، ص ٨٩٣).

وسيكون ذلك من الآن فصاعدًا أحد الثوابت فى سياسة «الشعب المختار الجديد»: «الله والدولار هما غذاء السلطة».

ولم يكف أوائل منظرى الاتحاد مثل «دانا المجل - Révérand Dana» عن الإشارة إلى هذا النسب الإلهى للدولة الجديدة حيث يقول: «إن شكل الدولة الوحيد الذى أقامته الرعاية الإلهية بشكل ظاهر هو دولة العبرانيين. إنها جمهورية اتحادية مع «يهوه» فى قمته» (دانا: الأيمان ص ١٧).

وسنجد جيفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة، يصرح هو الآخر أن شعبه هو «شعب الله المختار» (ملاحظات حول ولاية فيرجينيا، الجزء التاسع عشر) وفى نفس الإطار، وبعد قرنين من الزمان، قال الرئيس نيكسون: «إن الله مع أمريكا، ويريد أن تقود العالم».

وهكذا سيبرر أكثر رؤساء الولايات المتحدة عمليات النهب التى سيقومون بها. ويعد التناقض بين الإيمان والممارسة العملية أحد ثوابت السياسة الأمريكية. فها هو الرئيس ماكنيل يغزو الفيلبين لكى «يسمو بهم»، ويحضرهم وينصّرهم.

الفصل الثاني

مسيح بولس ليس هو يسوع (عيسى)

ترجمة: د. داليا الطوخي

لم ترد إلينا عن حياة يسوع سوى بعض المعلومات التى نقلتها بعض المصادر المسيحية. أما المصادر غير المسيحية فلم تذكر شيئاً عن حياته سوى ما ذكره «سويتون» أحد أكبر مؤرخى روما، حوالى عام ١٠٠ بعد الميلاد عن العذاب الذى تعرض له شخص يدعى «خريستوس» وهو اسم يونانى أطلق على المسيح. إننا نادراً ما نتساءل عن التسلسل التاريخى لكتابة النصوص المقدسة ذاتها مفترضين منذ البداية أن الأناجيل الأربعة قد دونت جميعها فى عهد المسيح، وأن أعمال الرسل قد دونها القديس لوقا أحد تلاميذ المسيح، وأن رسائل بولس كتبت بعد الأناجيل لأن بولس قد ظهر بعد المسيح.

بيد أن الصورة التى رسمها المفسرون المسيحيون منذ القرن السابع عشر كانت مختلفة تماماً. فالكنسية تضيف نوعاً من الغموض على هذه التساؤلات وتتجنب القول بأن تدوين رسائل بولس سبق تدوين الأناجيل الأربعة المقدسة.

إن التسلسل التاريخى الذى يتفق عليه اليوم المفسرون المسيحيون هو الآتى:

أولاً: رسائل بولس وتشمل:

- رسائل بولس الأولى إلى مؤمنى تسالونيكي عام ٥٠ م.
- رسائل بولس إلى مؤمنى رومية وكورنثوس وتسالونيكي عام ٥٧ م.
- رسالة بولس الأخيرة عام ٦٣ م.

ثانياً: إنجيل مرقس عام ٦٤ م والذى كتبه يوحنا مرقس الذى لم يكن معاصراً ليسوع، بيد أنه كان من المقربين للرسول بطرس. فطبقاً لما روته الأحاديث الأبائية، فإن القديس مرقس قد قام بتدوين التعاليم التى نشرها بطرس فى

روما. وقد كان مرافقًا للقديس بولس بعض الوقت ثم افترقا وفى النهاية تم
التصالح بينهما.

ثالثًا: أعمال الرسل بعد عام ٦٤م. وقد كتبها لوقا الذى كان يعمل كطبيب
يونانى فى أنطاكية، وكان من تلاميذ بولس وأسس كنيسة فى هذه المدينة.
رابعًا: إنجيل لوقا ما بين عام ٨٠ و ٩٠م.

خامسًا: إنجيل متى ما بين عام ٨٠ و ٩٠م. وقد اختفت النسخة الأصلية من
هذا الإنجيل منذ بداية ظهوره ما بين عام ٤٠ و ٥٠م. وحتى آباء الكنيسة لا
يملكون أى نسخة منه، والتي كانت فى أغلب الظن مكتوبة باللغة الآرامية. أما
النسخة اليونانية فقد ظهرت بعد ذلك فى عام ٨٠م.

ويعتقد أن إنجيل مرقس ومتى كان مصدرهما مشترك وهو المصدر اليونانى،
غير أن متى قد استعان أيضًا بأعمال القديس لوقا. أما الأصل الآرامى فقد كان
موجه للشعب اليهودى.

سادسًا: إنجيل يوحنا وقد ظهر فى أواخر القرن الأول الميلادى^(١).

وفى صعيد مصر عام ١٩٥٤م، تم اكتشاف «أفكار يسوع» مجمعه فى كتاب
يطلق عليه - دون وجه حق - «إنجيل توما». فهو لا يروى حياة يسوع، بل
يجمع فقط أقواله. وقد دفنه بعض تلاميذه فى باطن الأرض حتى لا يبده
المعلمون الجدد.

(١) طبقًا للتسلسل التاريخى لإنجيل أورشليم، والكتاب المقدس المجمع المتفق عليه مع مقابلته بالإنجيل
المحرقة غير المعترف بها من قبل الكنيسة، وتعليق الأب بوسمار والأب بينوا مدير مدرسة الآثار
الإنجيلية الفرنسية فى أورشليم من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٢ وعضو المجمع الإنجيلى البابوى.
الطبعة الثانية التى قام الأب ساتن دى فوار بمراجعتها وتصحيحها عام ١٩٧٢ وقام بالتعليق عليها
الأب بينوا والأب بوسمار بالتعاون مع الأب لاموى.

وكذلك طبقًا لإنجيل يوحنا، تعليق الأب بوسمار والأب لاموى بالتعاون مع الأب روشيه الصادر
عام ١٩٧٧.

ويعترف الأب بوسمار والأب بينوا قائلين: «يبدو أن هذه الأقوال تتيح لنا التعرف على صيغة جديدة للأحاديث الإنجيلية، سابقة على كتابة الأناجيل الأربعة المقدسة»^(١).

ومن ذلك يتضح أن جميع الكتب المقدسة المعترف بها من قبل كنيسة روما قد تأثرت بشكل كبير بشخصية وأفكار بولس، هذا إن لم تكن سائدة فيها، على الرغم من أن هذه الأفكار تختلف جذريًا مع طبيعة رسالة يسوع.

وتعلق الترجمة المسكونية للإنجيل على أقوال بولس فتقول: «إن الإنجيل لم يضيف شيئًا إلى العهد القديم، بمعنى أن كل ما ورد في الإنجيل قد ذكر سابقًا في العهد القديم. فما يهم هو إثبات أن الإيمان المسيحي هو في الأصل ضمن إيمان بنى إسرائيل»^(٢).

وبهذا الشكل لن يكون يسوع سوى ممثل التزم بسيناريو كتب له في العهد القديم.

إن محاولة إقناع اليهود بأن ملكهم للأرض لن يكون في نهاية الزمان بل مع ظهور يسوع، ليست سوى أفكار يهودية معدلة تسعى لإخفاء ما تميز به نزول يسوع وما بشر به من معان فريدة وغير مسبوقة.

القديس بولس والتراجع

منذ بداية حديثه، يتحل بولس شخصية يسوع فيقول:

«ما دمتم تطلبون برهانا على أن المسيح يتكلم فيَّ» الرسالة الثانية إلى مؤمنى كورنثوس ١٣-٣.

ثم أعلن نفسه رسولاً، أى أحد الذين بعثهم يسوع ليشرحوا بكلمته، لأنه

(١) الكتاب المقدس المتفق عليه (١ - ٩).

(٢) طبقاً للترجمة المسكونية للإنجيل. النسخة الأصلية

13e éd Paris: Éd. Du Cerf, les Bergers et ges mages, 1977

يقول إنه رأى المسيح وهو فى طريقه إلى دمشق. وقد وصف بولس وتلاميذه هذه الرؤيا بطرق مختلفة: فتارة يقول إنها «رؤية سماوية» مثل الرؤى فى العهد القديم «ومن تلك الساعة، أيها الملك أغريباس، ما عصيت الرؤيا السماوية» (أعمال الرسل الإصحاح ٢٦ - ١٩)، وتارة أخرى يقول إنها «إعلان» دون أن يقدم وصف له «فلا أنا تسلمته من إنسان ولا تلقنته، بل جاءنى بإعلان من يسوع المسيح» (رسائل بولس إلى مؤمنى غلاطية ١ - ١٢). ثم نجده فى مرة أخرى يذكر أنها «معرفة» (رسائل بولس إلى مؤمنى فيلبى الإصحاح ٣: ٨ - ١١).

يريد بولس إرساء الاستمرارية بين العهد القديم والجديد. وتحدد أعمال الرسل بوضوح أن بولس يتكلم عن يسوع «استناداً إلى شريعة موسى والأنبياء» (أعمال الرسل ٢٨ - ٢٣). وليس أكثر دلالة على ذلك من كلمة الوعظ التى ألقاها فى المجمع اليهودى فى إنطاكية بسيدية عندما قال:

«ثم أبحر بولس ورفيقاه من بافوس إلى برجة فى بمفيلية، ففارقهما يوحنا ورجع إلى أورشليم. أما هما فتوجها من برجة إلى إنطاكية فى بسيدية. ودخلا المجمع يوم السبت وجلسا. وبعد تلاوة فصل من شريعة موسى وكتب الأنبياء، أرسل إليهما رؤساء المجمع يقولون: «أيها الأخوان، إن كان عندكما ما تعظان به الشعب، فتكلما» (أعمال الرسل الإصحاح ١٣: ١٣ - ١٦).

وعندما دعاه رؤساء المجمع بعد «قراءة الناموس والأنبياء»، بدأ بولس بتلاوة شريعة اليهود المقدسة التى تلخص تاريخ بنى إسرائيل وهو: الاختيار الإلهى والهجرة من مصر «إله هذا الشعب، شعب إسرائيل، اختار آبائنا ورفع قدر هذا الشعب طوال غربته فى أرض مصر. ثم أخرجهم منها بقوة ذراعه» (أعمال الرسل ١٣: ١٧)، إعطاء بنى إسرائيل أرض كنعان وهلاك الأمم السبع التى كانت تعيش فى هذه المنطقة «وأباد سبع أمم فى أرض كنعان وأورثهم أرضها» (أعمال الرسل ١٣ - ١٩)، وأخيراً ملك داود الذى اتخذه الرب ملكاً فيقول: «ثم عزله وأقام داود ملكاً عليهم وشهد له بقوله: وجدت داود بن يسى رجلاً يرتضيه قلبى» (أعمال الرسل ١٣ - ٢٢).

وفى الآيات الأربع الأولى من رسالته إلى أهل روميه، يضيف بولس إلى تلك الشريعة التاريخية المبادئ الرئيسية الإنجيلية العظمى فيقول:

إنجيل من الله - ثم التحية

من بولس عبد يسوع المسيح، الرسول المدعو المفرز لإنجيل الله، هذا الإنجيل الذى وعد الله به من قبل على ألسنة أنبيائه فى الكتب المقدسة، وهو يختص بابنه، الذى جاء من نسل داود من الناحية البشرية، ومن ناحية روح القداسة، تبين بقوة أنه ابن الله بالقيامة من الأموات. إنه يسوع ربنا الذى به ولأجل اسمه نلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان بين جميع الأمم « (رسالة بولس إلى مؤمنى روما الإصحاح ١ : ١-٥).

وقد ظلت هذه المبادئ العظمى، طوال عشرين قرناً، تشكل جوهر عقيدة الكنائس المسيحية.

يقول بولس مؤكداً على أن يسوع كان من نسل داود «وأخرج الله من نسل داود حسب الوعد يسوع مخلصاً لشعب إسرائيل» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٣). ثم يضيف راوياً إدانة يسوع والحكم عليه بالصلب «فلا أهل أورشليم ورؤساؤهم عرفوا المسيح، ولا هم فهموا ما يتلى من أقوال الأنبياء فى كل سبت، فتمموها بالحكم عليه» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٧) «وبعدما تمموها كل ما كتبه الأنبياء فى شأنه، أنزلوه عن الصليب ووضعوه فى القبر، ولكن الله أقامه من بين الأموات» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٩ - ٣٠)، ليبرهن من جديد على قدرته وعلى عنايته بشعب إسرائيل.

ويكمل بولس هذه الشريعة المقدسة فى رسالته الأولى إلى مؤمنى كورنثوس وذلك بإضافة عقيدة (الفداء) فيقول: «سلمت إليكم قبل كل شىء ما تلقيته، وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء فى الكتب، وأنه دفن وقام فى اليوم الثالث كما جاء فى الكتب» (رسالة كورنثوس الأولى ١٥ : ٣ - ٤). إن تكرار «كما جاء فى الكتاب» ويقصد به العهد القديم، مرتين فى الآيتين ٣ و ٤،

يكشف حرص بولس الشديد على إلحاق اسم يسوع بالشرعية اليهودية .
وهكذا، ومنذ تلك اللحظة يصبح ذكر حياة يسوع شيئاً لا جدوى منه .

إن عقيدة بولس، قد نشأت من الرغبة في جعل النبي داود ملكاً إلهياً بإرادة
الرب كما ذكر قائلًا «ثم عزله وأقام داود ملكاً عليهم وشهد له بقوله: وجدت
داود بن يسي رجلاً يرتضيه قلبي، وسيعمل كل ما أريد» (أعمال الرسل
١٣: ٢٢).

لقد أوردت كتب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢ هذا الحديث بالنص في
صفحة ١٥٤ .

إن هذا الإله كما بينته لنا رسائل بولس وأعمال الرسل، هو في حقيقة الأمر
إله غريب علينا، فهو إله الجيوش، إله يشوع ومذابحه، وهو ليس بالطبع «إله
المحبة» الذي أسماه يسوع «أبى» .

إن ذلك الإله هو رب بولس والكنيسة الرومانية، الذي اعتبره ديستوفسكى
«استمراراً للإمبراطورية الرومانية في الغرب» .

ومن أجل إضفاء الشرعية على بنوة النبي داود ليسوع، ومن أجل أن يصبح
يسوع من نسل ووريث لداود «من دمه ولحمه» كما يقول القديس بولس، فقد
اختلق القديسان الإنجيليان متى ولوقا سلالة نسب غريبة ليسوع:

وبذلك يكون بولس قد طمس نافذة الأمل التي فتحتها يسوع في تاريخ
البشرية من أجل إدخال مبدأ التعالي والتنزيل، ليس لقدرة ملك يحكم على
وجه الأرض، ولكن على العكس لأكثر الرجال فقراً وتواضعاً، التعالي ليس
لذوى المقامات الرفيعة ولكن لمن هو مع الفقراء في قاع المجتمع» .

وهكذا نعود أدراجنا تدريجياً إلى المفهوم للإله الملك أو الملك الإله، كما
كتب عالم اللاهوت الإسباني جونزالس فوس قائلًا: «لقد سقط يسوع ولم نعد

نجد فيه سوى الرب الذى نعرفه أو الذى نعتقد أننا نعرفه. إن يسوع بهذه الطريقة لا يوحى بشيء»(*) .

وعندما سعى بعض تلاميذ يسوع إلى اتباع نمط حياته وليس حياة داود قائد الجنود، أدانتهم الكنيسة. أما إذا تطرقنا للحديث عن الإيمان، فلسوف نذكر بالطبع آباء الكنيسة العظماء وهم: القديس يوحنا الصليبي ولاهوتي التحرير.

* * *

(*) j.i Gonzalez Faus, Acceso o Jesús, Salamanque, édSiguiéme 19890, p161.

يسوع يكشف الرب المحتجب فيجعله منظورا

لم يدع يسوع قط أنه الله، ولكنه كان دائم القول بأنه رسول الله أو من أسماء «الآب» أى المحبة المتناهية: محبة الإنسانية، محبة الحياة الحقّة ومحبة الكل المطلق الذى يسود كل طموحاتنا ورغباتنا الجزئية.

إن يسوع لم يقول قط إنه يشرع النواميس، ولكنه كان داعياً للمحبة.
لم يقول هذا حلال وهذا حرام.
لم يدع أنه ديان البشرية.

كما أنه لم يصف نفسه مطلقاً بصانع المعجزات، ولكن على العكس، كان دائماً القول لكل من يلصق به قدرات سحرية أن الإيمان هو الشافى «إيمانك شفاك!» «فلمس أعينهما قائلاً: ليكن لكما بحسب إيمانكما، فانفتحت أعينهما» (إنجيل متى إصحاح ٩: ٢٩) وفى آية أخرى يقول «اطمئني يا ابنة، إيمانك شفاك. فشفيت المرأة من تلك الساعة».

إنه يقول أن الإيمان هو صانع المعجزات، لأنه لم يدع على الإطلاق أنه الله ولكن فقط رسول الله.

إن بولس هو الذى جعل من «مسيحه» «ملكاً لليهود». لو كان ذلك صحيحاً، لما تردد رئيس الكهنة، لحظة واحدة، على الحكم عليه بالموت كمنشق على الإمبراطورية الرومانية أو كمرابى يتاجر باسم الرب.

ولكن بيلاطس أعلن على رؤساء الكهنة والجمعوع بعد محاكمة يسوع قائلاً:

«لا أجد ذنباً في هذا الإنسان» (لوقا ٢٣-٤) ثم وجه بعد ذلك حديثه إلى كهنة المجمع اليهودى قائلاً: «ها هو ملككم!» (يوحنا إصحاح ١٩ - ١٤).

وهكذا يتبين أن كهنة اليهود والفريسيون هم الذين أثاروا الشعب من أجل إدانة يسوع والتخلص منه. وهذا يدل على غرابة موقف الكنيسة ومعاداتها للسامية، عندما أدانت اليهود واتهمتهم بشعب هادم للأديان، بينما تقع مسئولية موت يسوع فقط على القائمين على هذه اللعبة أى (كهنة اليهود) ودعاة الصهيونية اليوم، كما تقع على اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة التى تعرف اختصاراً باسم «أبياك» AIPAC والجماعات التابعة لها فى مختلف أنحاء العالم مثل مافيا مجموعة «ليكرا» LICRA المناهضة للعنصرية واللاسامية والتى لا تمثل سوى ١٠٪ فقط من المجتمع اليهودى، والتى استبدلت إله إسرائيل بدولة إسرائيل.

وهكذا يكون كبار كهنة اليهود الذين كانوا يدافعون عن صلاحيتهم السياسية بجانب إمبراطور روما، معلين مصلحة الدولة على الدفاع عن الدين اليهودى، قد تمكنوا من إرساء قواعد سياسة معاداة السامية الإجرامية وذلك بخلطهم الشعب اليهودى بالمافيا التى تستغله وتتلاعب به حتى يومنا هذا. وقد لجأ بولس لنشر عقيدته إلى تلك الحيل ذاتها مما ضمن له النجاح. وكانت نقطة الانطلاق هى «قيامة يسوع» الذى قدمها لليهود على أنها «معجزة تدل على قدرة الرب» من أجل إقناعهم بأن هذه القيامة ليست سوى تحقيق لوعده الله لهم، «ونحن نبشركم بأن ما وعد الله به آبائنا تم لنا، نحن أبناءهم، حين أقام يسوع من بين الأموات» وفقاً لما كتب فى المزمور الثانى: «أنت ابنى، أنا اليوم ولدتك» (أعمال الرسل إصحاح ١٣: ٣٢، ٣٣).

إن هذه القيامة بالنسبة لبولس تعد استمراراً لأعمال داود الطيبة كما سبق وأعلن إشعياء فى العهد القديم. فضلاً عن ذلك، فقد استطاع إقناع الجموع غير اليهودية وخاصة اليونانيين، الذين يتطابق لديهم الله والقدرة، بأن هذا

الإله هو صاحب القدرة العظمى . واستطاع بولس ، أيضاً ، أن يحفر فى أذهان اليهود واليونانيين فكرة اتسام يسوع بالسمات التقليدية لآلهة القدرة اليونانية القديمة ، مثل القدرة على التدمير والخلق كما كان يفعل زيوس ومهارته فى تسخير الصواعق و«يهوه» إله الجيوش عند اليهود .

يبد أن هذا «الإصلاح الرجعى» الذى قام به بولس ، ونزل بيسوع إلى مرتبة الآلهة القبلية القديمة من أجل تحويله إلى إله من آلهة القدرة اليونانية ، لن تفيد حياة يسوع فى شىء ، حتى الأحداث المتفرقة التى وردت فى الأناجيل الأربعة عن حياته ، فإنها لا تستطيع أن تقدم له أى عنصر إضافى ولو ضئيل : فمنذ ولادة يسوع فى حظيرة حتى موته على الصليب مع العبيد ، فإن هذا المبشر الذى كان يعيش متنقلاً بين المدن والذى لم يدع قط صنع المعجزات ولكنه ، على العكس ، كان ينسب هذه المعجزات إلى الإيمان ، هذا الشهيد الذى أهين وأذل وتوج بتاج من الأشواك تحقيراً له ، لن يفيد فى خلق بطل من أبطال الفروسية على طريقة داود كما ذكر بولس قائلاً : «فإنه لا بد أن يملك إلى أن يضع جميع الأعداء تحت قدميه» (رسالة بولس الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٥ - ٢٥) وأيضاً كما سبق وتنبأ داود فى المزامير حيث يقول «قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك» يجعل الرب صهيون منطلقاً لسلطانك (المزمور ١١٠ : ١-٢) .

ومن هنا نستطيع أن نفهم ما عبر عنه الأب سيجوندو Segundo من قلق عندما اعترف قائلاً : «فى هذا البعث نجد صعوبة فى التعرف على يسوع التاريخى»^(١) .

يقول يسوع : «ما جئت لأدعو أبراراً بل خاطئين» (مرقس ٢ : ١٧) ويقول أيضاً لأحد المجرمين المصلوبين معه : «الحق أقول لك : ستكون اليوم معى فى

(١) راجع كتاب الأب سيجوندو بعنوان «ما هى العقيدة؟» ١-١٥ .

الفردوس». (لوقا الإصحاح ٢٣: ٤٣) وقال للأخبار: «الحق أقول لكم: جبة الضرائب والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله» (متى الإصحاح ٢١: ٣١).

إن ذلك الإنسان الذى كان يقول: «أنا لن أكون ديان أحد»، ها هو قد تنكر بأبادة بولس وتحول إلى منقذ إسرائيل «أناشدك أمام الله والمسيح يسوع الذى سيدين الأحياء والأموات عند ظهوره ومجىء ملكوته» (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس الإصحاح ٤: ١).

فبينما كان يسوع رسولا قد بعثه الرب إلى الفقراء خاصة، وكان يدعو تلاميذه إلى الزهد فى كل شىء، فإن القديس بولس كان يخدم الأثرياء بشكل مؤثر للغاية: فقد كان أول من بادر بالخلط بين «العطايا» و«الإحسان».

ومن هنا نفهم مما ذكره «بوسويه - Bossuet» فى كتابه «السياسة من التاريخ المقدس» قائلاً: «الإله الحق، هو إله بنى إسرائيل».

إن الخلط بين تعاليم يسوع وتعاليم القديس بولس تحجب عن أعيننا إدراك أن الكنيسة تتبع تعاليم بولس منذ عشرين قرناً، وتذكر ذلك صراحة فى كتب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢م مستشهدة بقول بولس: «ثم عزله وأقام داود ملكاً عليهم وشهد له بقوله: وجدت داود بن يسى رجلاً يرتضيه قلبى، وسيعمل كل ما أريد» (أعمال الرسل الإصحاح ١٣: ٢٢).

إن لاهوت السيطرة الذى تم تأسيسه منذ عشرين قرناً على نهج داود، يطبق، مثل يشوع، إرادة رب الجيوش. ومنذ ذلك الوقت، نشأت ما يسمى باليهودية المسيحية. حتى إن اسم الكنيسة، ظهر لأول مرة عندما ذكره القديس بولس فى رسالته الأولى إلى مؤمنى كورنثوس عندما قال لهم: «أما وأنتم أيضاً ترغبون فى المواهب الروحية، فاطلبوا أن يزيدكم الله منها لبنيان الكنيسة» (كورنثوس الأولى الإصحاح ١٤: ١٢).

إن بولس لم يقم بإعادة تهويد المسيحية فحسب، بل حولها إلى ديانة هيلينستية.

وقد وصل نجاحه في هذه المهمة إلى ذروته، عندما قام الرومان بتدمير أورشليم في عام ٧٠م، فعاش اليهود في شتات متفرقين في منطقة جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط، فازداد تأثرهم بالثقافة اليونانية.

بولس لم يكن داعية يتسم بعقلية منظمة بارعة- استطاع بواسطتها إنشاء كنائس في كبرى المراكز في الشرق الأوسط مثل إنطاكية وأفسس- فحسب، بل لقد كان أيضًا ذا ثقافة يهودية ويونانية واسعة، مكنته من نشر إنجيله في كل الشتات اليهودي. إن هذا الإنجيل لم يكن إنجيل يسوع بل كان إنجيل الرب كما كان يقول. وقد أثبت في خطابه الذي وجهه إلى أهل أثينا تمكنه وفهمه للثقافة اليونانية، فلقد كان يظهر قوة وبراعة كبيرة في مزج وتطعيم المفاهيم والمعتقدات اليهودية التاريخية بالثقافة اليونانية.

فمن أجل عرض رسالته، سعى جاهداً إلى ربط هذه الرسالة بأفكار ومعتقدات مستمعيه من أهل أثينا. ففي بداية خطابه، لم يتحدث عن حياة يسوع أو موته بل تحدث فقط عن قيامته في نهاية الخطاب عندما قاطعه جموع مستمعيه مستهزئين به. أما في باقى الخطاب، فقد كان يتحدث فقط عن الشريعة اليونانية.

ومن أجل أن يسترعى انتباه واهتمام أهل أثينا، أعلن بولس بلهجة ساخرة قائلاً: «يا أهل أثينا! أراكم أكثر الناس تديناً في كل وجه» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٢). لقد لاحظ في أثينا، كما يقول وجود معبد مكتوباً عليه «إلى الإله المجهول» (ولم يكن ذلك صحيحاً، فقد كتب أهل أثينا على المعبد «إلى الآلهة المجهولة» خشية منهم نسيان أحد هؤلاء الآلهة فتحرمهم من قائمة خدماتها). لقد عقد في هذا الخطاب مقارنة جريئة بين الرب وآلهة اليونانيين قال فيها: «لأنى وأنا أطوف في مدينتكم وأنظر إلى معابدكم وجدت مذبحاً

مكتوبًا عليه: إلى الإله المجهول. فهذا الذى تعبدونه ولا تعرفونه هو الذى أبشركم به. إنه الله خالق الكون وكل ما فيه، فهو رب السماء والأرض لا يسكن فى معابد بنتها أيدي البشر» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٤-٢٣) ثم أخذ، بعد ذلك، يعدد التنويهاً والتشبيهاً والاستشهادات التى اقتبسها كلها من أعمال كبار الفلاسفة والمعلمين اليونانيين والرومان فيقول إن هذا الإله: «لا تخدمه أيدي بشرية، كما لو كان يحتاج إلى شيء، لأنه هو الذى يعطى البشر كلهم الحياة ونسمة الحياة وكل شيء» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٥). وقد ذكر ذلك من أجل تحريم صناعة الأصنام التى كانت محرمة فى ذلك العصر كما ذكر الفيلسوف الرومانى «سيناك».

ثم استطرد ذاكرًا استشهادًا اقتبسه من الشاعر Epimenide فى القرن السادس قبل الميلاد فقال: «لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد، أو كما قال بعض شعرائكم: نحن أيضًا ذريته» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٨). لقد كان هذا الاستشهاد مقتبسًا من أفلاطون فى ثلاثيته الحياة والحركة والوجود.

وفى تسلسل قام بربط حديثه بقضية تتعلق (بالرواقين) وهى وحدة الجنس البشرى.

وكان هذا الاستشهاد قد استقاه من كتاب «الظواهر» للفيلسوف «اراتوس» الذى ظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد وكان مقربًا للفيلسوف الرواقى «كليانت».

إن اللغة التى تحدث بها بولس فى هذا الخطاب، لغة مزدوجة، غدت اللغة الثابتة لخطاب الكنيسة المسيحية، أى الحديث عن السلام دون الإشارة إلى المذنب، والحديث عن المحبة مع إقامة محاكم التفتيش، والتسامح مع العبودية والاستيطان، والقول بأن يسوع قد أتى من أجل «تطبيق الناموس» وليس إلغائه، كما لو أن المحبة كانت تطبيقًا للقصاصا!.

لقد أعلن بولس بطريقة بارعة إلى العبيد قائلاً: «فعلى كل واحد أن يبقى مثلما كانت عليه حاله عندما دعاه الله. فإن كنت عبداً عندما دعاك الله فلا تهتم. ولكن إن كان بإمكانك أن تصير حراً، فالأولى بك أن تغتنم الفرصة فمن دعاه الرب وهو عبد كان للرب حراً، وكذلك من دعاه المسيح وهو حر كان للمسيح عبداً» - (كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ : ٢٠ - ٢٢) ثم يوجه حديثه إلى النساء قائلاً: «أيتها النساء، اخضعن لأزواجكن كما تخضعن للرب فإن الزوج هو رأس الزوجة كما أن المسيح أيضاً هو رأس الكنيسة» (الرسالة إلى مؤمنى أفسس ٥ : ٢٢) و«أيتها النساء اخضعن لأزواجكن كما يليق فى الرب» (الرسالة إلى مؤمنى كولوسى الإصحاح ٣ : ١٨) ويضيف: «ولا أجزى للمرأة أن تعلم ولا أن تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلتزم الهدوء ذلك لأن آدم كون أولاً ثم حواء، ولم يكن آدم هو الذى انخدع (بمكر الشيطان) بل المرأة انخدعت فوقع فى المعصية» (رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ١٢ - ١٤) و«وإذا كانت المرأة لا تغطى رأسها، فأولى بها أن تقص شعرها، ولكن إذا كان من العار على المرأة أن تقص شعرها أو تحلقه، فعليها أن تغطى رأسها» (كورنثوس الأولى الإصحاح ١١ : ٦).

إن هذه المسيحية الهيلينستية قد لاقت نجاحاً كبيراً إلى الدرجة التى أصبحت تشكل قوة فى الإمبراطورية الرومانية، فطبقاً لتعداد تم فى عهد الإمبراطور طارجان Tarjan، كان يوجد مواطن يهودى مسيحي بين كل عشر مواطنين يونانيين. ولقد كان الرومان يخلطون منذ زمن بعيد بين اليهود والمسيحيين فيمنحون المواطنة الرومانية إلى اليهود وكان من بين هؤلاء القديس بولس الذى لم يتردد فى استغلال والاستفادة من تلك المواطنة فى نزاعاته مع القضاء والسلطة الرومانية.

١- إن قراءة العهد القديم وتسلسل النصوص الإنجيلية، تجعلنا نتساءل إن كان من الطبيعى عدم ذكر أن رسائل بولس كان سابقاً على كتابة الأناجيل

الأربعة المقدسة، وأن كتاب هذه الأناجيل، عندما عرفوا حياة يسوع، أرادوا إدراج ذكرياتهم الشخصية وأقوال يسوع وأعماله فى إطار لاهوت بولس الذى سبق عصرهم.

٢- وبعد مرور ثلاثة قرون على تفسير النصوص المقدمة ومرور عشرين قرنًا من التعليم الدينى، هل من الأمانة اعتماد كلمة «المسيحية» هذه الكلمة التى لم تظهر إلا عند مرور القديس بولس بأنطاكية عام ٤٣م، عندما أطلق بولس على تلاميذه المسيحيين: «فلما وجدته جاء به إلى أنطاكية فأقاما سنة كاملة يجتمعان إلى جماعة الكنيسة، فعلمنا جمعًا كبيرًا. وفى أنطاكيا تسمى التلاميذ أول مرة بالمسيحيين» (أعمال الرسل الإصحاح ١١ : ٢٦).

إن كلمة المسيح تعنى «المنقذ» أى منقذ مملكة داود، فى حين أن تلاميذ يسوع يطلق عليهم حتى الآن «القديسين».

إن بولس يسمي تعاليمه «إنجيلي» ولا يسميه مطلقا «إنجيل يسوع» فيقول: «يوم يدين الله خفايا الناس، وفقًا لإنجيلي، على يد يسوع المسيح» (الرسالة إلى مؤمنى رومية الإصحاح ٢ : ١٦). فهو يفضل أن يقول «إنجيل الرب» لأنه يقصد بهذا الرب، رب إسرائيل الذى لا يكف عن مناجاته. فبولس لم يذكر مطلقًا فى رسائله أقوال يسوع أو أعماله، لأن حياة يسوع البائسة وموته بهذه الصورة الوحشية على الصليب مع العبيد، لا تتفق وما ينتظره الشعب اليهودى وهو مجيء أحد الغزاة على طريقة داود لينصر ملكهم كما روى كتبة سليمان فى الملحمة الأسطورية.

وهكذا يكون بولس قد أرسى قواعد الديانة اليهودية المعدلة التى لا تعد امتدادًا للملحمة الأسطورية للشعب اليهودى فحسب، بل تشبه بكل بساطة هذه البقية من القبائل اليهودية التى ينقذها الرب بعد كل خيانة بمسيح منقذ، والذين وعدهم بولس بعودة المسيح «تحيط به الملائكة» من أجل القضاء على الملوك وإقرار ملك بنى إسرائيل.

لقد أراد بولس أن يبدأ التاريخ المسيحى فقط «بإنجيله» الذى يلغى كل الإنجيل الأخرى: فهو يرفض حتى أن يقوم بالتبشير فى مكان مر به قبله أحد الإنجيليين. ياله من تشدد غريب من قبل أحد المبشرين!

أما «القيامة» فقد لا تتجلى، بالنسبة لبولس، إلا لكى تؤكد لنا قيامتنا بالمنح، باعتبارها «معجزة دالة على قدرة الله» فكما أن المسيح حى بقدرة الله فنحن سنكون أيضاً أحياء معه بقدرة الله تماماً كما يقول بولس: «ومع أنه صلب بضعفه فهو الآن حى بقدرة الله ونحن أيضاً ضعفاء فيه، ولكننا فى معاملتنا لكم سنكون بقدرة الله أحياء» (كورنثوس الثانية ١٣ : ٤).

إن مفهوم العقيدة فى فكر بولس ليس سوى تأكيد على الديانة اليهودية التقليدية، التى فى الغالب اختفت أيضاً ملامحها من تلك العقيدة.

لقد ركز بولس اهتمامه على إدراج اسم يسوع فى الحديث اليهودى. وعندما أشار إلى «البشرى الطيبة» لم يتفوه بكلمة عن حياة يسوع كما لو أن هذه الحياة لا جدوى لها، بل وتثير الضيق، هذا لأنها كانت بالطبع نقيضاً لحياة داود.

إن المنطق الذى يسيطر على فكر بولس هو أن يجعل يسوع يقول، بعد موته، عكس ما كان يقوله ويفعله فى حياته. لقد استطاع بولس تحويل نجار الناصرة إلى ملك وإله قادر. أما الموت فقد ابتلعه النصر «ابتلع الموت فى النصر فأين يا موت شوكتك؟ وأين يا موت نهرك؟ وشوكة الموت إنما هى الخطيئة» (كورنثوس الأولى ١٥ : ٥٥). لقد حول بولس القيامة إلى نصر على ممالك الأرض التى خضعت جميعها لعقابه وكان مصيرها الدمار. يقول بولس «ويكون المنتهى حين يسلم المسيح الملك إلى الله الأب بعد أن يبىد كل رئاسة وكل سلطة وقوة. فلا بد له أن يملك حتى يضع جميع أعدائه تحت قدميه» (كورنثوس الأولى ١٥ : ٢٤ - ٢٥) وكان هذا الحديث تأكيد لما جاء فى (المزمور ١١٠) الذى يعد ترنيمة القدرة وتمجيد لداود قائد الجيوش وجعل من يسوع وريثاً غريباً لداود. وهكذا يكون يسوع قد عاد - باسم جديد وهو المسيح - إلى عقيدة آلهة القدرة.

إن الله فى نظر اليهود هو من يحمى الذين يؤمنون به ويمنحهم النصر على أعداءهم. لهذا، فقد كان اليهود يرشقون يسوع بالسباب والألفاظ الساخرة وهو على الصليب، ذلك لأن الله لم يخلصه من صلبه كما سبق وخلص النبى دانيال من مخالب الأسود فى الجب «فطابت نفس الملك جدا، وأمر بإخراجه من الجب، فخرج سالماً من كل سوء، لأنه آمن بإلهه» (دانيال ٦ : ٢٣). ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا لم تكن حياة يسوع ذات أهمية بالنسبة لبولس، فهذه الحياة لم تكن السبب فى موت يسوع لأن موته كان مقرراً من قبل بمرسوم إلهى أبدي. وهو لم يمت أيضاً لانتهاكه النواميس المقدسة اليهودية أو لرفضه الاعتراف بالوهية الإمبراطور، رب الرومان، بينما كان يسوع يدعو دائماً إلى «اعطوا لله ما لله».

إن بولس يستهين بحياة يسوع - كما لو كانت هذه الحياة بكل ما فيها من قلق وشكوك ومعان إنسانية، غير قادرة على أن تجعل الآب إلهاً منظوراً - التى فهمها الوثنى قائد المائة، حين قال أمام الصليب - قبل القيامة - : «بالحقيقة كان هذا الإنسان ابن الله» (مرقس ١٥ : ٣٩).

فالبشرى الطيبة بالنسبة لبولس لم تكن حياة يسوع الذى حطم بأقواله وأعماله كل الماضى بما فيه من آلهة القدرة.

وفى المقابل يقول بولس : «لأنى ما قصرت فى إبلاغكم مشيئة الله كلها» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٧). فمن أجل أن تصبح القيامة «معجزة دالة على قدرة الله» كان لابد أن يصاحبها حدث جلل مماثل لرؤية حزقيال التى حدثت فيها معجزة خروج العظام من باطن الأرض مكسوة باللحم والجلد : «وحلت على يد الرب، فأخرجنى بالروح ووضعنى فى وسط الوادى وهو ممتلئ عظاماً. وقادنى بين العظام وحولها، فإذا هى كثيرة جداً على أرض الوادى ويابسة تماماً. فقال لى : «يا ابن البشر أعود هذه العظام إلى الحياة؟» فقلت : «أيها السيد الرب أنت وحدك تعلم». فقال لى : «تنبأ على هذه العظام وقل لها :

أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب: هكذا قال السيد الرب لهذه العظام: سأدخل فيك روحاً فتحيين. أجعل عليك عصباً وأكسيك لحماً وأبسط عليك جلدًا وأنفخ فيك روحًا، فتحيين وتعلمين أنى أنا هو الرب». فتنبأت كما أمرت. وبينما كنت أتنبأ سمعت بخشخشة، فإذا العظام تتقارب، كل عظمة إلى عظمة. ورأيت العصب واللحم عليها، والجلد فوقها، وما كان فيها روح بعد. فقال الرب لى: «تنبأ للروح، تنبأ يا ابن البشر، وقل للروح: هكذا قال السيد الرب: تعال أيها الروح من الرياح الأربع وهب فى هؤلاء الموتى فيحيوا». فتنبأت كما أمرنى، فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أرجلهم جيشًا عظيمًا جدًا. فقال الرب لى: «يا ابن البشر، هذه العظام هى بيت إسرائيل بأجمعهم. هم يقولون: ييست عظامنا وخاب رجاؤنا وانقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: سأفتح قبوركم وأصعدكم منها يا شعبى، وأجىء بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أنى أنا هو الرب حين أفتح قبوركم وأصعدكم منها يا شعبى. وأجعل روحى فيكم فتحيون وأريحكم فى أرضكم، فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وفعلت، يقول الرب». - (حزقيال ٣٧: ١ - ١٤).

إن بولس يتحدث، بحذر، عن «الجسم الروحى» قائلاً «يدفن جسمًا بشريًا ويقوم جسمًا روحانيًا. وإذا كان هناك جسم بشرى، فهناك أيضًا جسم روحانى». (كورنثوس الأولى ١٥ : ٤٤).

أما الرسل، فقد تحدثوا عن الجسد المادى حتى تكون الألفاظ التى يستخدمونها فى حديثهم الرعوى فى متناول إدراك الشعوب، وقد مضى آباء الكنيسة على هذا النهج. ففى القرآن الثانى الميلادى وفى دراسة بعنوان «حول قيامة الموتى» ذكر الفيلسوف «ترتليان» استشهادًا مطولاً مقتبسًا من رؤية حزقيال، ثم استشهد ببولس فى الخاتمة قائلاً: «كلما نتحدث عن قيامة الموتى يكون مقصدنا قيامة الأجساد» كما قال بولس.

وهكذا، فإن كل ما يتعلق بالقيامة يأتي من خارج العالم البشرى، أى تطبيقاً
لمرسوم إلهى أبدي لا يحدث سوى مرة واحدة بفضل هذه المعجزة! معجزة
القدرة.

إن الكنيسة اليهودية المسيحية التى نسب لها بولس ميراث العهد القديم ستأخذ
إذن على عاتقها مسئولية جميع الأساطير والعقائد المتناقضة الملفقة التى تشكل
ماضيها الوهمي.

* أليس الإخلاص ليسوع يحتم تفضيل الفقراء الذى من أجلهم بعثت
رسالته؟

* هل بمقدور عقيدة بولس اليهودية المسيحية دفعنا إلى الاعتقاد بأن يسوع
هو داود الثانى؟ أى قائد الجيوش الذى جاء لخدمة سلطة ما؟ على الرغم من أن
هذه العقيدة لم تستشهد قط بأقوال يسوع أو أعماله، بل إنها لم تكثر به إلا
فى مرحلة ما قبل مولده وذلك بواسطة سلاله أنساب متناقضة كان الهدف منها
هو تحويل يسوع إلى ملك وخليفة لداود كما ورد فى العهد القديم (صموئيل
الأول والثانى وكتاب الملوك).

* هل موقف بولس من الأغنياء ودعوته إليهم بتقديم عطاياهم مما يفيض
عن حاجتهم حتى لا يشعروا بالضيق، تتفق مع ما دعا إليه يسوع من زهد
وتجرد من كل شىء إذا كنا نريد أن نكون من أتباعه؟

* هل بمقدورنا أن نقول فى إطار هذا الفكر اليهودى المعدل، مثل بوسويه
إن «يسوع هو مسيح إسرائيل» أى أن «الإله الحق هو إله بنى إسرائيل»؟

إذا استطعنا أن نقول ذلك، فلن يصبح يسوع سوى ممثل ينفذ السيناريو الذى
كتب له فى العهد القديم. ولن يكون هو من فتح نافذة الأمل الهائلة فى تاريخ
البشرية وتاريخ الآلهة من أجل أن ينبثق مبدأ التعالى، التعالى ليس لسلطة ملك
أرضى، بل لتجرد أكثر الرجال فقراً.

إن يهودية بولس المعدلة تعيد من جديد سلطة «رب الجيوش» وتجعل منه رباً قادراً يعود إلى الأرض محاطاً «بملائكة قدرته».

إن معتقداتنا الدينية، التي ظلت حبيسة هذا المفهوم البشرى للرب، ليست بمعزل عن تلك الأوهام. فمبدأ «العفو الإلهي والنعمة» سيظل دائماً هو السلطة التعسفية المطلقة التي تسيطر على الإنسان. ولن يستطيع الإنسان التملص من مسئوليته حتى وإن لم يكن هناك ناموساً إلهياً يسيطر عليه ويهدده بخطاياہ ونواہیہ.

فكل ما يحدث فى حياة البشر من أحداث تخضع لهذا المبدأ: أى «مبدأ الإله الذى يخضع كل شىء لإرادته» كما ورد فى كتاب التعاليم المسيحية فى عام ١٩٩٢م للبابا يوحنا بولس الثانى، والذى أورد بالنص ما ذكره مجمع تورنتو (١٥٤٥ - ١٥٦٣م) الذى يستند بدوره إلى رسالة القديس بولس إلى مؤمنى فيلبى عندما قال: «لأن الله يعمل فيكم ليجعلكم راغبين وقادرين على إرضائه». (فيلبى ٢ : ١٤) وعندما عاد وحدد إلى مؤمنى روما قائلاً: «فإذا كان الاختيار بالنعمة، فما هو إذاً بالأعمال، وإلا لما بقيت النعمة». (رومية ١١ : ٦). فالعفو هو نعمة ممنوحة من الرب ليخلص مؤمنيه كما كان يصر بولس قائلاً: «بنعمة الله نلتم الخلاص بالإيمان. فما هذا منكم، بل هو هبة من الله» (مؤمنى أفسس ٢ : ٨).

من القديس بولس إلى نيقية (عام ٣٢٥م)

بولس هو مؤسس المسيحية ومكسبها صفتها المؤسسية، وهو أيضاً مؤسس لاهوت السيطرة.

إن الكنيسة التي كانت تعاني في القرن الرابع الميلادي إبان الإمبراطورية الرومانية من الانقسام والتفكك، أصبحت بعد ذلك تشكل قوة لا يستهان بها، حتى إن الأباطرة وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إما اضطهادها كما فعل الإمبراطور دوميتيان، وإما التحالف معها كما قام بعد ذلك الإمبراطور قسطنطين.

هذه الكنيسة كانت بالنسبة لبولس تمثل «البقية» من المؤمنين الذين نجاهم الرب مع نوح في السفينة. تلك «البقية» الطاهرة التي خرجت من جزع يسى مع داود كما ذكر أشعيا: «يخرج فرع من جذع يسى وينمو غصن من أصوله. روح الرب ينزل عليه، روح الحكمة والفهم والمشورة روح القوة والمعرفة والتقوى، ويبتهج بمخافة الرب» - (إشعيا ١١ : ١ - ٤) إن هذه «البقية» ينجيها الله دائماً في كل مرحلة من مراحل تاريخ الخلاص حتى تستفيد من «الاختيار الإلهي». ويوضح بولس ذلك إلى أهل رومية قائلاً: «وفى الزمن الحاضر أيضاً بقية من الناس اختارها الله بالنعمة» - (رومية ١١ : ٥).

لقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ما يمكنه استغلاله من هالة القدسية التي تحيط «بالطاعة» للكنيسة، فجعل من المسيحية الديانة الوحيدة المميزة للإمبراطورية وحرص على إنهاء جميع الانقسامات الأيديولوجية بين المسيحيين.

بيد أنه في القرن الرابع الميلادي، وقع حادث هدد وحدة الكنيسة، وهو تبشير أسقف الإسكندرية أريوس.

لقد قام أنصار المذهب الأرثوذكسى بإحراق وتدمير جميع أعمال آريوس فيما عدا خطاب واحد. لذا فلن نتمكن من تحديد ما ذكر فى هذا الخطاب تقريباً إلا من خلال ما ورد إلينا من أقوال أعداء آريوس أنفسهم ولاسيما القديس هيلار. ففى بداية القرن الرابع الميلادى، أراد آريوس - كما يبدو - الحفاظ على وحدة الذات الإلهية ضد الاتجاه السائد آنذاك، والذي كان يهدف إلى إحلال يسوع الرب - خالق كل شىء - مكان الله المطلق، كما ذكر القديس بولس قائلاً: «فلنا نحن إله واحد وهو الآب الذى منه كل شىء وإليه نرجع، ورب واحد وهو يسوع المسيح الذى به كل شىء وبه نحيا». (كورنثوس الأولى ٨ : ٦).

إن مفتاح فكر آريوس هو الآية التى يقول القديس بولس فيها: «الآب أعظم منى»، بالإضافة لجميع المقولات التى تستبعد فكرة تطابق الله مع يسوع، مثل ما ورد فى إنجيل يوحنا حينما قال: «لا تمسكى بى! فإنى لم أصعد بعد إلى الآب، بل اذهبى إلى إختوتى وقولى لهن: إنى سأصعد إلى أبى وأبيكم، وإلهى وإلهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

إن يسوع، فى فكر آريوس، «ينبثق من الرب» وهذا التعبير مأخوذ من أفكار الفيلسوف بلوتن الذى استوحاه بدوره من عقائد الهند. فأريوس يقول إن يسوع قد جاء - مثل جميع البشر - «على صورة الرب» صورته المثلى الكاملة وهى صورة الرسول شديد الإخلاص لكل ما يندرج تحت هذه الوحدة الإلهية، وهو شاهد بحياته وموته على هذه الوحدة. وطبقاً لهذه الفكرة، يصبح يسوع الصورة المنظورة للرب غير المنظور كما كان يقول: «من رآنى فقد رأى الآب».

إن النجاح الذى لاقته أفكار وتبشير آريوس قد وصل الجدل حوله إلى الحد الذى أدى إلى انقسام جميع كنائس الشرق.

أما قسطنطين الذى كان يريد توحيد أركان إمبراطوريته، فقد رأى فى هذا التمزق عاملاً قد يؤدى إلى انتشار الفوضى وزعزعه النظام العام. لذا فقد سعى فى البداية إلى محاولة التوفيق بين المذاهب والآراء، وعندما فشلت جميع مساعيه، قرر اللجوء إلى القوة.

لقد كان الإمبراطور قسطنطين، فى ذلك الوقت، خارجاً لتوه من معركة هزه فيها غريمه إمبراطور الشرق (لسنيوس) واستطاع أن يدخل عاصمته نيكوميديا ظافراً عام ٣٢٤م، قام قسطنطين فى العام التالى، أى عام ٣٢٥م بدعوة المجمع الكنسى إلى الاجتماع فى مدينة قريبة من نيكوميديا وهى نيقية من أجل إدانة آريوس، وذلك بإصدار مرسوم صارم يساعده على التعرف على العناصر المتمردة بين رعاياه الخاضعين لحكمه. وفى المجمع، أخبر الإمبراطور آباء وأساقفة المجمع أن أى شخص سيرفض القرار النهائى الذى سيتم اتخاذه فى المجمع سيتم نفيه.

وطبقاً للشهادة التى ذكرها أثاناسيان فى كتابه بعنوان «حول مراسيم مجمع نيقية»، فإن أساقفة المجمع كما يقول باعتباره كان حاضراً المجمع «قد طمحوا فى البداية إلى محاولة انتزاع السباب من أفواه أتباع آريوس وذلك باستخدام كلمات من الكتب المقدسة»^(١).

بيد أن قسطنطين أراد اتباع معيار واضح لكى يستطيع التمييز بين المذهب الأرثوذكسى الذى سيحقق وحدة إمبراطوريته الأيديولوجية، وبين الهرطقة التى كرس نفسه لقمعها.

وقد اختار مستشاروه التعبير اليونانى Omoousios الذى يعنى أن الابن خلق من «جوهراً» الأب، مما يعد اختيار غريب، لأن الإيمان المسيحى - بهذا الشكل - يتم التعبير عنه بطريقة وأسلوب يونانى خالص. بينما المفهوم الجوهري للفلسفة اليونانية وهو مفهوم «الوجود» أو «ousia» باللغة اليونانية، يعتبر مفهوماً غريباً تماماً عن الشريعة اليهودية للإله الحى الخالق. كما أنه غريب بالنسبة للشريعة الإنجيلية والتى تنص على أن الله محبة، أى علاقة وليس «وجوداً» كما فى الفلسفة اليونانية.

(١) راجع كتاب الأب إفريم بولاراند بعنوان «هرطقة آريوس وإيمان نيقية» الجزء الثانى ص ٣٠٤.
Père Ephrem Boularand S.j "l'heresie'arius Etla Foide Nicee" (ed. Letouzey Et Ané. 1972, Tome Ll.

لقد أدى استخدام هذا التعبير اليونانى إلى حالة من البلبلة الشديدة، وصلت إلى الدرجة التى أصبح فيها الشعب فى نيقية يستخدم كلمة «hypostase» والتى يُقصد بها أحد أركان الثالوث، كمرادف لكلمة «الجوهر» والتى تعنى الوجود الحقيقى فى مظهره الخارجى.

ويرجع أصل كلمة «omoousios» إلى العقيدة الغنوصية والتى قام مجمع إنطاكية بإدانتها عام ٢٦٨م معلناً حرمان ونفى الأسقف بولس أسقف إنطاكية واتهامه بالهرطقة، وذلك لاستخدامه هذه الكلمة التى لا وجود لها سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد.

وقد كان من المتوقع، بل ومن المؤكد، أن آريوس واتباعه لن يقبلوا قرار هذا المجمع. وكان هذا ما ينتظره الإمبراطور، لذا فقد أمر بنفى جميع الآريوسيين بالإضافة إلى ثلاثة من أساقفة قاموا بعد انتهاء انعقاد المجمع بإعلان انسحابهم لأنهم لم يصوتوا على هذا القرار إلا خوفاً من الإمبراطور، فقرر قسطنطين عزلهم ونفيهم إلى «بلاد الغال» فى فرنسا.

ومما سبق، ندرك، أن جوهر المشكلة لم يكن العقيدة، بل السياسة والنظام العام. ففى نيقية كان الانصياع لأوامر الإمبراطور أمراً واجباً، لذا ومن أجل إقرار السلام فى الإمبراطورية الرومانية، كان لابد أن يصبح يسوع إلهاً كغيره من الآلهة، بل ومثل الإله جوبيتر، أى قسطنطين نفسه الذى كان وظل حتى وفاته يطلق عليه الحبر الأعظم.

لقد ذكر يوحنا دانييلو فى كتابه «التاريخ الجديد للكنيسة» قائلاً:-

«إن الإمبراطور يعتقد ببساطة أنه قائد الشعب المسيحى، أى موسى الجديد أو داود الجديد على رأس بنى إسرائيل الحقيقين وهذا هو الرباط المقدس الجديد^(١)».

(١) راجع كتاب يوحنا دانييلو بعنوان «التاريخ الجديد للكنيسة» الجزء الأول ص ٢٨٣.

لقد أقر مجمع نيقية بصورة نهائية أرثوذكسية بولس . وقد كتب العالم ومؤرخ مجمع نيقية الأب بولاراند عن ذلك قائلاً:

«لقد استوحى محررو مجمع نيقية قراراتهم مباشرة من بولس». أما الأب سيجوندو فقد ذكر أن مجمع نيقية: «قد اجتمع فقط من أجل تضخيم وإعطاء أهمية كبيرة لاعتراف بولس بإيمانه» فقد أعلن المجمع أن يسوع الناصرة، ابن الرب، من جوهر واحد وطبيعة واحدة أو من كينونة واحدة لله الواحد الذى يعبده اليهود وبعض الفلاسفة اليونانيين الذين لا يؤمنون بتعدد الآلهة»^(١).

وهكذا يكون يسوع قد دخل مبدأ الحق المشترك للآلهة القديمة، فأصبح هو الخالق لعالم لا مساس به كما يقول بولس «هو صورةُ الله الذى لا يُرى وبِكُرُ الخَلْائِقِ كُلِّهَا» (كولوسى ١: ١٥).

لقد كان إيمان بولس هو أفضل ضمان للإمبراطور قسطنطين من أجل إخضاع الشعب للوضع الراهن.

إن اهتمام قسطنطين بالعقيدة كان ضئيلاً، فقد قام بعد مجمع نيقية بثلاثة أعوام بتعديل آراءه وأعلن عفوهُ عن آريوس وأتباعه، بل أصبح من مؤيدي أعداء مجمع نيقية، وفى الحقيقة لم يعمد إلا عام ٣٣٧م وهو على فراش الموت، وقام بتعميده أسقف آريوسياً.

* * *

المذهب القسطنطينى

لقد كان عهد الإمبراطور قسطنطين ميلاداً لمرحلة جديدة فى تاريخ الكنيسة التى كانت حتى ذلك العصر تعاني الاضطهاد. بيد أنه بتولى قسطنطين الإمبراطورية، أصبحت الكنيسة مؤسسة من مؤسسات الدولة، ولذلك يقال أن مجمع نيقية كان ميلاداً للمذهب القسطنطينى.

(١) راجع كتاب الأب سيجوندو بعنوان «مسيحية بولس» ص ٣٠٤.

فقد كان قسطنطين يُعنى بأن يصبح «الأساقفة من بين موظفى الدولة وفى خدمتها»^(١) وذلك بمنحهم، بلا جدوى حق التحكيم فى القضايا المدنية والقضاء على المذاهب الوثنية التى كان يطبق عليها عقوبة الإعدام منذ عهد الإمبراطور ثيودوس.

وهكذا، امتلكت الكنيسة جميع مقاليد أمور الإمبراطورية بين يديها وتحكمت فى مصائرهما حتى أنها أصبحت بعد ذلك، خليفة الإمبراطور فى الحكم، عندما استولى الغوصيون على روما فى عام ٤١٠م وأسقطوا آخر إمبراطور روماني.

إن مسيحية بولس التى كانت تسيطر على السلطة الحقيقية بعد أن كانت تعاني الاضطهاد، غدت قوة تطبق الاضطهاد على الأديان والمذاهب الأخرى بعد أن كانت تكتفى بحرق كتب الهرطقة، ولهذا السبب لم نعثر على أفكار آريوس أو مارسيون إلا ما تبقى من أقوال اختارها أعداؤهما.

ولنذكر مثلاً يعد من الأمثلة البارزة على العراقيل التى وضعها مجمع نيقية فى طريق الإيمان:

إن الروح القدس فى الإيمان المسيحى ليست وجوداً بل قوة تكمن داخلنا وتدعونا إلى التفوق على الذات. بيد أنه بعد مجمع نيقية أصبحت الروح القدس تترجم بكلمة «لوجوس» التى لا تعنى فى اليونانية سوى تطبيق العقل على كل الأشياء، كما لو أن الله لا يعلو مفاهيمنا وقدراتنا العقلية.

ففى نيقية، كان الشعب يستخدم مفردات يونانية للإشارة إلى الله، بينما معنى هذه الكلمات الحقيقى ينكر وجوده.

فقد تمت ترجمة كلمة «Prosopon» اليونانية أو «Persona» اللاتينية على أنها «شخص» فى حين أن الكلمتين لهما معنى واحد وهو «قناع». إن هذا

(١) راجع كتاب الاب سيجوندو بعنوان «ما هى العقيدة؟» ٢٨٦.

المعنى يخالف الباطنية الإلهية للشخصية الإنسانية كما يصورها الفكر المسيحي . وهكذا أصبح يسوع والرب وحدة جوهرية مشتركة طبقاً للترجمة الحرفية للكلمة اليونانية «homousios» التي يعود أصلها إلى المفهوم الأرسطي لكلمة «ousia» والتي ترجمت إلى اللاتينية بكلمة «substantia» أى ما وراء الظواهر . وقد نتج عن ذلك الكلمة الفرنسية «substance» وتعنى «الجوهر» وهى المطابقة للكلمة اليونانية «hypostasis» . إن جميع هذه الكلمات تخالف فى الواقع المعنى الدقيق لكلمة «الرب» الخالق، المتعالى والذي تحول إلى أقنوم «hypostase» أى أحد أركان الثالوث المقدس . إن استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى يحقق الغرض المطلوب، وهو إضفاء الغموض على معنى كلمة الرب لغير المتخصصين فى فقه اللغة .

إن البحث عن معنى كلمة «الرب» يستوجب استبعاد جميع المفردات اليونانية عن «الوجود» .

لقد ذكر لى يوماً الأب دانييلو، المتخصص البارع فى التاريخ للكنيسة وقبل تنصيبه كرديناً قائلاً: «إن كل هرطقة العصور الأولى للكنيسة، نبتت من محاولتنا استخدام اللغة والثقافة اليونانية من أجل ترجمة تجربة مسيحية غريبة تماماً عن تلك اللغة وعن تلك الثقافة» .

ومن هنا نشأ هوس الجدل بين المسيحيين واليهود والمسلمين . فالمسلمون يتهمون المسيحيين بتثليث الله . قد يكون هذا الاتهام حقيقياً، خاصة فى نظر الديانة اليهودية والإسلام، وهما ديانتان توحيديتان .

مجمع نيقية مولد لاهوت السيطرة

لقد ساد فى عهد الإمبراطور قسطنطين الذى استمر من عام ٣٠٦م إلى ٣٤٣م، نوعاً من الإرهاب كان يمارسه رجال الشرطة. فقد كانوا يميزون الجنود وعمال المصانع فى الدولة بوسمهم بالحديد الساخن. أما الإمبراطور قسطنطين فقد قتل صهره وأخوة زوجته الثلاثة، بالإضافة لابنه الأكبر (كريسبوس)^(١) وزوجته الثانية (فوستيا).

فها هو الخليفة المبجل للنبي داود، وها هو «الملك المسيحى» الذى ترك بصمات واضحة فى تاريخ الكنيسة عندما جعل الديانة المسيحية الديانة الرسمية للدولة.

ومنذ ذلك الحين، بدأت المعركة الحقيقية بسلسلة طويلة من الاضطهادات والجرائم، والتى كان أبرزها الحرب التى شنها ضد الهرطقة فى إسبانيا والتى كانت حرباً عنيفة أدت توابعها إلى إعدام الأب بريستليان زعيم الحركة وأسقف آفيل فى مدينة «تريف» بإيطاليا عام ٣٨٥م.

وفى أفريقيا، لم يتردد القديس أغسطينس أسقف قرطاج فى القرن الرابع الميلادى بمساندة من القديس إمبرسيوس أسقف ميلانو، فى اللجوء للقوات الرومانية من أجل بث الرعب وإبادة المسيحيين، ولا سيما أنصار الحزب الدوناطى والثوار من العمال الزراعيين فى شمال أفريقيا.

وفى عهد الإمبراطور ثيودوس صدر مرسوم بمنع قتل الأطفال، وفى عهده أيضاً صدر الأمر بحرمان ونفى الجنود الذين يطبقون المبدأ الإنجيلى «لا تقتل» بمقتضى القانون الثالث المقدس الذى أصدره مجمع آرل عام ٣١٤م.

(١) قتل قسطنطين ابنه الأكبر كريسبوس عام ٣٢٦م، أى بعد عام من مجمع نيقية.

أما الأسقف نيسطوروريوس الذى رفض اعتبار مريم العذراء «أم الرب»، فلم يتم عزله فحسب، بل إن القديس سيريل الذى كان من أنصار الأرثوذكسية، قد حصل على أمر بنفيه واستبعاده لمدة أربع سنوات فى الصحراء المصرية حيث توفى عام ٤٥٠م.

وفى عام ٤٥٣م، تم إدانة زعيم حركة الهرطقة وزعيم مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح والمعارض للأرثوذكسية، والذى رفض تأييد أى سلطة دينية لا تؤمن بالإله الواحد ولا تقر بواحدانية الرب. وقد ذهب الشعب آنذاك متضامناً معه، فتم إرسال الجيش الرومانى من أجل القمع الوحشى للمقاومة الشعبية. بيد أن هذا الاتجاه القمعى لم يستطع تقويض هذا المذهب التوحيدي، فقد امتد تأثيره إلى النوبة وجنوب آسيا.

إن تأصل مذهب الطبيعة الواحدة فى المنطقة العربية كان له أكبر الأثر فى إنتشار الإسلام فى هذه المنطقة، وتجاوب الشعب معه الذى لم يجد فى هذه الديانة أى غرابة. كما أن انتشار المذهب الآريوسى فى إسبانيا قد ساعد وسهل دخول الإسلام فى تلك البلاد، وذلك بسبب الإيمان الموحد المشترك بأن يسوع كان نبياً عظيماً ولكنه ليس الله.

من اللافت للنظر أن الإسلام كان لفترة طويلة ينظر إليه على أنه هرطقة مسيحية. وهذا ما عبر عنه يوحنا الدمشقى فى الفصل (١٠١) من كتابه عن «الهرطقة». كما أن دانتى، فى القرن الثالث عشر الميلادى، فى كتابه «القصيدة» وخاصة الأنشودة الثامنة والعشرين بعنوان «الجحيم» اعتبر محمداً ضمن المنشقين، ووضعه فى دائرة المنشقين مع الباب بونيفاسيوس الثامن.

إن هذا الفكر السياسى لبولس، الذى كان موافقاً لهوى السلطات، سواء فى عهد الإمبراطور أغسطينس أو فى عهد قسطنطين، قد دفع الكنيسة إلى تطبيق سياسة شمولية وقمعية تهدف إلى إقرار سلطتها المطلقة، ليس على صعيد العقيدة لفرض مذهب دينى مطلق فحسب، بل أيضاً على الصعيد السياسى.

فقد أصبحت الكنيسة هي المتحدثة باسم الإمبراطورية الرومانية ليس باعتبارها ممثلة لأورشليم، هذه المدينة التي شهدت استشهاد وموت يسوع ولكن باعتبارها ممثلة لروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وقد كان أبرز مثال على ذلك، النزاع الذي نشب بين جماعة الإكليروس والإمبراطورية والذي استمر لقرون طويلة.

لقد كتب القديس توماس الإكويني في القرن الثالث عشر الميلادي إلى هوج الثاني قائلاً: «إن الحكومات العلمانية يجب أن تكون تابعة لحكومة الكنيسة».

إن هذا الادعاء الثيوقراطي الخاطئ^(١) قد ساعد، بل كان عنصر الضمان للجرائم الكبرى التي ارتكبتها القادة السياسيون في الغرب، سواء بالتزام الصمت إزاء هذه الجرائم أو بالتواطؤ معها. ومن أمثلة هذه الجرائم البشعة الحروب الصليبية ضد المسلمين، الاضطهاد الوحشي للبروتستانت، وإبادة الهنود الحمر في أمريكا، وتجارة العبيد في إفريقيا، ثم في القرن العشرين التعاون مع الفاشية.

إن الخطاب البابوي بعنوان «مع الأحرار» Mit Brennender Sorge قد أدان قولاً فقط التفرقة العنصرية، بينما كانت الاتفاقية التي عقدها البابا مع هتلر لا تزال قائمة.

وبمقتضى هذه اللغة المزدوجة، فقد كتب الأساقفة الألمان بالإجماع، في مدينة فولدا يوم ٢٠ أغسطس عام ١٩٣٥م خطاب تأييد لهتلر قالوا فيه: «ليساعد الرب الفوهرر من أجل إنجاح هذه المهمة الضخمة» (أي مناهضة الشيوعية). ثم أضافوا في خطاب آخر بتاريخ ٢٤ ديسمبر عام ١٩٣٦م قائلين: «إن الأساقفة الألمان يعتبرون من واجبهم مساندة زعيم الرايخ في هذا الصراع وذلك بكامل لديهم من وسائل في المجال الديني».

(١) إن هذا الادعاء يعتبر خاطئاً لأن طبقة الكهنة الرومان والذين يعتبرون أنفسهم في خدمة الدين المطلق، أرادوا فرض سلطتهم على العلم من منطلق أنهم يتحدثون باسم الرب.

أما فى إسبانيا، فقد أيد كبير الأساقفة، الكاردينال جوما باسم الأسقفية، الانقلاب الذى قام به فرانكو، فقد رأى فى نضال فرانكو كما كتب فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦م «روح حرب صليبية حقيقية من أجل الدفاع عن الديانة الكاثوليكية». وفى العاشر من أكتوبر عام ١٩٣٧م أضاف فى خطاب آخر قائلاً: «إن طبقة الكهنة الإسبان تؤيد بحماس حركة الفداء الإسبانية المجيدة».

لقد تورطت الأسقفية الفرنسية هى الأخرى فى هذا الاتجاه نفسه وذلك بإعلان تضامنها مع السلطة القائمة. ففى مدينة ليون، حدد كبير أساقفة فرنسا، الكاردينال (جارلييه) Gerlier مهام الكنيسة مؤكداً فى يوم ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٠م «أن هذا الزعيم منحة من الرب لصالح وطننا» وفى يوم الخامس من فبراير عام ١٩٤١م، وجهت الأسقفية الفرنسية بأكملها، باستثناء الكاردينال سالياج، أسقف مدينة «تولوز»، رسالة جماعية إلى البابا «بى الثانى عشر» قالوا فيها: «إننا نعلن جميعاً ولاءنا التام للسلطة القائمة». وفى الرابع والعشرين من يوليو فى العام نفسه، بعثوا برسالة أخرى قالوا فيها: «إننا نشجع المؤمنين على مساندة السلطة القائمة فى عملية الإصلاح، بل والتعاون معها دون خوف».

وبعيداً عن الكنيسة الرومانية الرسمية، أعلن عدد كبير من الكاثوليكين وبعض القساوسة رفضهم لهذه السياسة التضامنية.

لقد شهد أحد القساوسة الفرنسيين فى الجريدة السرية «الدفاع عن فرنسا» فى عددها الخامس والثلاثين قائلاً: «لقد كان لكهنة الكنائس فى المدن دور أيضاً فى هذه المقاومة الشريفة مثلهم مثل باقى قطاعات الشعب... إن هذا الاتصال المباشر مع شعب فرنسا قد أساء للأسف لكبار رجال الكنيسة».

إن إحياء هذا الماضى البعيد، والذى لا يزال حياً حتى يومنا هذا، لم يكن الهدف منه فتح الجراح القديمة، لكن فقط توضيح أن جميع طبقات الكنيسة الرومانية ظلت على إخلاصها، طوال ألفى عام، لفكر القديس بولس، على الرغم من أن ملايين من المسيحيين قد استمروا فى إخلاصهم لرسالة يسوع،

فدون العودة إلى عصور الاضطهاد الأولى «للهرطقة» بعد قرارات مجمع نيقية عام ٣٢٥م، أو عهد الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، يتعين علينا عدم إغفال الذين جاهدوا وسبحوا ضد تيار الفكر القسطنطيني، واهبين حياتهم من أجل التوحد مع يسوع الحى دائماً والذي سبق أن وهب حياته من أجلهم، كما ذكر الأب لابرتونير قائلاً: «من أجل قضية المصير ومن أجل مبدأ ونهاية الحياة كان يجب أن يعيش».

بيد أن هذا التيار المناهض، كان دائماً بعيداً عن الكنيسة الرسمية، بل وضدها، لأن إيمان هؤلاء كان يتعارض فى الغالب مع العقيدة السائدة.

مسيح بولس ليس هو يسوع

من أجل مناهضة فكر بولس، نشأ هذا التيار السرى الذى لم ينفك يحيا ويساعد الأجيال المسيحية على الاستمرار فى الحياة من أجل أن تكون شاهدة على الحياة الحقيقية ليسوع، ضد روما وأحبارها وجميع أساقفها.

وفى هذا الصدد، يتعين علينا التذكرة بقضية «جواشيم دى فلور» الذى أدانه مجمع «لاتران» عام ١١٧٩م بسبب تكوينه فى إطار «الإنجيل الأبدى» مملكة روحية دينية خارج نطاق الكنيسة. ولنذكر أيضاً «سان فرنسو داسيز» الذى تجرد من كل ثروة أبيه، تاجر الأقمشة الثرى فى مدينة أسيز، وأصبح «الفقير خادم الفقراء». وقد خالف التقاليد الإقطاعية للأديرة التى لم يكن رؤساؤها، مثل الأب «كلانى»، يخرجون مطلقاً دون موكب حراسة مكون من مائة فارس، وذهب إلى دمياط، فى خضم المعارك الصليبية، وعبر الحاجز الحديدى المنيع الذى أقامته الجيوش الصليبية، وذلك من أجل مقابلة السلطان وهو مرتدياً ملابسه الرثة.

أما يوحنا الصليبي فقد حكم عليه بعدم مغادرة محل إقامته وذلك بسبب محاولته تخطى عصر «الليل الدامس» والصعود لجبل الكرمل، متجاوزاً الطرق التقليدية.

وهناك أيضاً «باسكال» الذى كان الإيمان بالنسبة له قضية مشيرة القلق، لذلك فقد عاش حياته مثل «منعزلى» بورت رويال، بعيداً عن أى تواطؤ مع السلطات الكنسية.

منذ قرون طويلة وحتى اليوم، لا يزال آلاف المسيحيين، ممن يسكن قلوبهم

يسوع، يذهبون إلى الكنيسة من أجل تناول القربان المقدس والحصول على البركة من أيادي الكهنة الذين يعتقدون، باعتبارهم أصحاب أفضل إيمان في العالم، أن إيمان بولس هو نفسه إيمان يسوع.

ولكن، رغم كل هذه البلبلة بين حياة يسوع وعقيدة بولس، والتي استمرت ألفى سنة، فإن بذرة إيمان جديدة قد بدأت تنبت شيئاً فشيئاً، ولكن ليس في العالم الغربي. هذا الإيمان الجديد ليس إيماناً رومانياً فحسب، بل إيمان عام أطلق عليه الإيمان الكاثوليكي.

وقد ازدادت قوة هذا التيار الكاثوليكي حتى أنه أصبح يشكل مقاومة قوية استطاعت كما كنا نأمل، التصدي للأزمات الكنسية الكبيرة التي نشأت في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد تسببت هذه الأزمات في إدانة «القساوسة العمال»، بالإضافة للأب «تيلهارد دوشاردن» الذي صدر ضده مرسومًا رومانياً مقدس يوم السادس من ديسمبر عام ١٩٥٧م مقررًا الآتي:

«يتم سحب جميع كتب الأب «تيلهارد دوشاردن» من المكتبات والمؤسسات والندوات الدينية، وتمنع ترجمة كتبه إلى اللغات الأخرى».

لقد كان أكبر مثال على محاربة الكنيسة لهذا التيار الجديد، هو الحرب التي شنتها بالتعاون مع وكالة المخابرات الأمريكية (CIA) ضد لاهوت التحرير (في أمريكا اللاتينية) الذي يعد من أكبر الحركات المبشرة بالأمل في عصرنا الحالي، وقد بدأت هذه الحرب في أمريكا اللاتينية ثم امتدت لتشمل إفريقيا وآسيا.

ومن جانبى، فقد بدأت بالتعاون مع أنصار الأب «تيلهارد دوشاردن»، بتنظيم «حوارات دولية» وقمت أيضاً بكتابة تمهيد حماسى لكتابه بعنوان «الظواهر الإنسانية» والذي كنت قد حصلت على ترجمة له في موسكو.

الكنيسة تعتنق ديانة الإمبراطورية الرومانية الديانة اليهودية المسيحية

فى عام ٣٢٥م، عقب مجمع نيقية، لم يكن الإمبراطور قسطنطين هو الذى اعتنق المسيحية، بل كانت الكنيسة هى التى اعتنقت العقيدة الرومانية، فى البداية بهدف إظهار الخضوع للإمبراطورية، ثم السيطرة عليها فى النهاية. فقد طبقت الكنيسة جميع لوائح السلطة الإمبراطورية، فأصبح الأساقفة حكامًا حقيقيين، ولقب البابا بالحبر الأعظم وهو اللقب الذى كان يطلق على كبار الكهنة الوثنيين.

إن التاريخ الدينى للكنيسة يسيطر سيطرة تامة على التاريخ الغربى. فأوروبا لم يكن لها وجود خارج إطار هذه الكنيسة. وستظل دائماً وأبداً داخل هذا الإطار الذى لن تستطيع الخروج منه، حتى بعد أن وقعت معاهدات ويستفاليا عام ١٦٤٨م، وتفككت أوروبا إلى أمم كثيرة. ولن تجدى أيضاً محاولتها إقناع العالم أن بإمكانها القيام بنهضة أو قيامه حقيقية باستبدال الكنيسة بالسوق الموحدة التى يسيطر عليها الدولار وتابعه (اليورو).

إن التاريخ الأوروبى أو بمعنى أصح التاريخ المسيحى الذى أدى إلى نشأة أوروبا، تاريخ دموى حافل باضطهادات الهرطقة التى ولغت فى الدماء والتعذيب الجسدى. فالقديس أغسطينس لم يتردد فى اللجوء إلى القوات الرومانية من أجل السيطرة ومقاومة أنصار الهرطقة (الدوناتية) الذين لم يقبلوا عودة القساوسة أنصار الاحتلال الرومانى إلى البلاد مرة أخرى، بالإضافة لمقاومة الثوار الزراعيين الذين أرادوا إلغاء الامتيازات القديمة للمحتلين الرومان ومهاجمة الامتيازات التى حصل عليها ملاك الأراضي الزراعية الجدد.

ومن المؤسف أن نرى فى هذه المعارضة الحقيقية للكنيسة، مجرد معارضة داخلية، أو بعض التجاوزات غير المرغوب فيها.

فقد كان هناك بالفعل تيارات معارضة: فمن ناحية كانت الكنيسة المهيمنة على الغرب، والتي ازداد سيطرة فكر بولس عليها بدءاً من مجمع نيقية حتى ظهور كتب التعاليم المسيحية عام ١٩٩٢م، ومن ناحية تنافس مع السلطات القائمة، أو قد نقول أيضاً دون توافق مع الفكر القسطنطينى الرسمى .

فقد كان هناك إذن فرع من المؤمنين يؤمن ب «السلالة المسيحية الأولى» كما كان يقول الأب «تيلهارد دوشاردن».

أننا لن نستطيع أن نذكرهم جميعاً، لأن هناك آلافاً من المسيحيين أرادوا أن يستمروا على إخلاصهم لما أسماه الكردينال دانييلو فى كتابه «تاريخ الكنيسة» بالمسيحية الآسيوية، مذكراً أن مواطن ازدهار المسيحية ومركزها الحقيقى كان طوال الخمسة عشر عاماً الأولى لظهورها، إنطاكية بسوريا، عندما مر بولس بهذه المدينة وأطلق على اتباعها لأول مرة اسم «المسيحيين».

وقد ذكر الأب دانييلو فى كتابه (ص ٥٣) بشىء من التحديد قائلاً: «إن هذه الكلمة (المسيحية) كان لها صدى سياسى». فهو يقصد بالطبع، أنصار «خريستوس» هذا اللقب اليونانى الذى لا يشير إلى يسوع التاريخى، بل إلى من كان يقوم بوظيفة «المسيح» فقط تطبيقاً للشريعة اليهودية.

إن هذا الوفاء ليسوع ورسالته السامية قد ظهر قبل وبعد مجمع نيقية، هذا المجمع الذى يعد علامة بارزة فى التاريخ المسيحى، بل وكل تاريخ أوروبا والذى كتب عنه الأب «بولاراند» قائلاً: «إذا كان مجمع إنطاكية قد أدان كلمة «omoousios» فقد كان ذلك بسبب فهم بولس الخاطئ لمعناها (ص ٢٦٥) واستخدامه لها من أجل إنكار التفرقة بين الابن كشخص والأب (ص ٣٥١)».

لقد قام دعاة الحروب الصليبية، مثل القديس برنارد، باسم هذا الحكم التعسفى «تلك إرادة الرب» بالدعوة لإبادة المسلمين فى القدس على يد «المسيحى» جود فرى دوبيون.

كما قامت إيزابيلا «الكاثوليكية الورعة» بالمطالبة بإقامة محاكم التفتيش ضد اليهود ومسلمى إسبانيا. بالإضافة إلى ذلك، فقد قام أحد (الباباوات) متخذًا من التبشير الدينى مبررًا، بتقسيم أمريكا اللاتينية بين المستوطنين الإسبان والبرتغال.

وبصفة عامة، وبعيدًا عن آلية سياسة الأديان، فإن «أساتذة القانون»، فى جميع الأديان التى يُطلق عليها أديان سماوية منزلة، ينقلون إلينا أحكام ونواهى تمت صياغتها منذ قرون بعيدة على يد مشرعين كانوا مكلفين بالاستجابة لمطالب زمانهم. ولكنهم لم يذكروا لنا ماذا يجب علينا «خلقه» من أجل بناء مستقبل للبشرية ذا طابع إنسانى وإلهى.

فباسم هذه الأخلاق الدينية الغربية، قام الشعب الأمريكى، الذى حولته وسائل الإعلام لشعب وديع، بنشر هذه الأيديولوجية، وصوتوا جميعًا لصالح قاتل ومنفذ لسلسلة من أحكام الإعدام، والذى تم فى عهد حكمه لولاية تكساس تنفيذ حكم الإعدام فى عشرة أشخاص خلال ثلاثين يومًا، حتى وإن لم تثبت إدانتهم، بالإضافة لـ ١٦٤ آخرين قد تم إعدامهم فى ستة أعوام خلال فترة حكمه لولاية تكساس. إن طرح بعض الشرائع الثابتة منذ آلاف السنين للمناقشة، لا يعبر عن أزمة فى الإيمان بقدر ما هو التعبير عن أزمة فى الثقافة التى سادت فيها هذه العقائد حتى الآن.

لقد اتسعت الفجوة بين التعاليم المسيحية والرؤية الحالية للكون، فأصبح من الصعب السيطرة عليها.

ككيف يجعل إله خالق من الأرض -هذا الجزء الضئيل من الكون- المحور الوحيد لاهتماماته والمركز النموذجى الوحيد لكل أشكال التصنيف: بين السيد

والعبد أو بين الخير والشر، كما لو أن «دrama الكون التفاضلية» يجب أن تدور فقط على هذا المسرح الضئيل الحجم لدرجة السخرية؟.

إن الأسطورة الأصلية تنطوي أيضاً على ادعاءات خطيرة، فهي تتخيل الرب أمير مستبد، متقلب الأطوار ومتحيز. فتمثله الأسطورة يشير إلى «شعب مختار» ويمنحه سلطة التدمير والطرده والسيادة على كل الشعوب الأخرى.

إن تلك الصلاحية قد استولى عليها كل من ادعوا بأحقيتهم فى السلطة . ليس اليهود فحسب، بل أيضاً بعض «النصارى والمسيحيين» الذى اعتبروا أنفسهم ورثة هذه السلطة ، وجاءوا من أجل إضفاء القدسية على حروبهم الصليبية وعلى محاكم التفتيش وعلى حكوماتهم الإلهية . ثم جاء «الغرب» وحمل الراية وقام بالاستيلاء على السلطة وفتت العالم إلى قوميات صغيرة . وبعد تفكك العالم المسيحى ، عندما تم توقيع معاهدات ويستفاليا، جاء كل أمير ليعلن نفسه ممثلاً لهذا الكون السامى ومنافساً شرساً لجيرانه . وفى نهاية الأمر، قام باستيطان أرض الآخرين، وبارك هذا الاحتلال وكل ما ارتكبه من مذابح واغتصاب وسلب ونهب واستبعاد بأن أطلق على هذه الأفعال اسم «البشارة الإنجيلية».

الرومنة بعد التهود والهلننة

فى عهد الإمبراطور قسطنطين، كان فكر مجمع نيقية بالطبع موافقاً للأهواء السياسية للنظام السائد فى الإمبراطورية الرومانية. فطبقاً لهذا الفكر أصبح الله هو خالق لعالم ثابت ومستقر لا يجوز تغييره، بما أن الله أراد هكذا، لذا فإن أى محاولة لتغييره تصبح انتهاكاً للمحرمات. كما أن الإمبراطور قد أصبح العامل الضامن لهذه الأبدية الكونية ولاستقرار النظام القائم.

منذ زمن طويل، كان من المعروف أن المكان الوحيد الذى استطاعت الحضارة الإنسانية أن تجد فيه أرضاً خصبة لازدهارها، هو الضفاف الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.

فى القرون الأولى لانتشار المسيحية، كانت الإمبراطورية الرومانية هى مقر انتشار هذه الديانة. فقد أشار (دانتى) فى دراسة بعنوان «دراسة فى الملكية» إلى إحصاء البشر فقال: «بهذه الكلمات نستطيع أن نفهم بوضوح أن القضاء العام للعالم كان بين أيدي الرومان» ثم أضاف قائلاً: «إننى أؤكد، إذن، أن الشعب الرومانى قد حصل - فوق جميع البشر - على الإمبراطورية». وجرى هذا الإحصاء الأول عندما كان كيرينىوس حاكماً فى سوريا (لوقا ١ : ١-٢).

وبعد انقضاء عهد قسطنطين، عندما فرضت الكنيسة سيطرتها على الإمبراطورية الرومانية، اعتبرت نفسها بذلك المهيمنة على العالم كله والسلطة الوحيدة المخولة بتقديم مفهومها الوحيد عن الإيمان لجميع البشر. ومما يدل على ذلك أن أحد فصول كتاب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢م يحمل عنوان: «لا خلاص بعيداً عن الكنيسة» ص ١٨٦.

فإذا كان الله هو ذلك الحاكم القادر الذى أعطى أوامره لموسى ثم من بعده ليسوع،
بإيادة الشعوب الأخرى، فهل كان يسوع حقًا ابنًا لهذا الرب؟

إن ما يعتبرها البعض العقيدة اليهودية المسيحية هى، عن حق، عقيدة مشوشة ومغلوطة، لأنها تعتبر أن ديانة بنى إسرائيل هى نفسها ديانة يسوع. إن ذلك كان بالنسبة للويس الرابع عشر يعد شيئًا طبيعيًا، لأنه كان يعتبر نفسه حامى المملكة المطلق. فهل كان كتاب «خطاب عن التاريخ العام» قد تم تأليفه دفاعًا عن يسوع كما كان يقول مؤلفه بوسويه؟ وهل كان يسوع هو فقط «مسيح إسرائيل»؟

إن كلمة «الطاعة» هذه الكلمة الغالية بالنسبة للقديس بولس، كما كانت بالنسبة لبوسويه والإمبراطورية الرومانية، لم يستخدمها يسوع مطلقًا فى حديثه. بيد أن كتب التعاليم المسيحية قد استخدمتها بل وضخمت من معناها عندما استشهدت بأقوال بولس عن وجوب الخضوع للسلطة مهما كانت، «حتى لو كانت هذه السلطة نيرون» كما ذكر القديس أغسطينس.

وهناك عقيدة أخرى، للأسف تلقيناها أيضًا عن أجدادنا، وهى أن «الثقافة الغربية» ليست لها سوى مصدرين: المصدر الأول الثقافة اليهودية المسيحية والمصدر الثانى الثقافة اليونانية الرومانية.

إنها بالطبع رؤية قصيرة النظر، أو فكرة وهمية أيدتها بعض النظريات الجامعية القديمة.

لقد شعرت كثيرًا بالأسف لأن الله أصبح ينظر إليه على أنه كلمة وليس فعلاً.

الفصل الثالث

نشأة المتوحشين

ترجمة: د. ناهد عبد الحميد

نشأة المتوحشين

نشأت نهضة القرن السادس عشر - كما تم الاتفاق على تسميتها فى التاريخ الغربى من إسهامات العالم أجمع فى الحضارة الأوروبية (وهو الأمر الذى طالما ما نخفيه عن طلبة مدارسنا الأوروبية، تحت زعم أن ليس لهذه النهضة إلا مصدران اثنان فقط هما: المصدر اليهودى - المسيحى، والمصدر اليونانى - الرومانى).

وقد ظل «طريق تجارة الحرير» لعدة قرون طريقاً ليس فقط لجلب المعادن والأحجار الثمينة، ولكن أيضاً المحصولات الزراعية. ولقد استطاعت أوروبا بفضل البوصلة - التى اخترعها الصينيون - الإبحار فى أعالي البحار، وبالتالي التوصل إلى ما أطلقت عليه «اكتشافاتها العظيمة»، وتمكنت كذلك بفضل البارود الوارد من الصين من تحقيق غزواتها وانتصاراتها وتوطيد سيطرتها الاستعمارية. كما استطاعت تعميم الزراعات وتحقيق الإصلاحات بفضل اختراع صناعة الورق والطباعة فى الصين قبل جوتنبرج بـ عدة قرون. كذلك نجحت بفضل اتباع نموذج العرب والأندلس فى توحيد الشرق والغرب، واحترام الأديان الثلاثة (دون أى تمييز طائفى) وتطبيق المنهج التجريبي وتطوير العلوم.

«والمعجزة اليونانية» هى بحق المصدر الفعلى للنهضة. إن نشأة مجتمع يطغى عليه التنافس والتزاحم بين الإنسان على السوق، أدى إلى ظهور أيديولوجية ساعدت على إرساء هذه الممارسة وغيّرت المفهوم القديم للعلاقات بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان وربه. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة - وهى إحدى خصائص عصر النهضة - هى علاقة بين منتصر ومهزوم. والعلاقة بين الإنسان والإنسان هى علاقة شخصية للغاية، من هنا ظهرت فئة رجال الأعمال بالمعنى الإيجابى والسلبى للكلمة. إن هذه الرغبة فى

تحقيق المنفعة والسيطرة، تماثل إرادة المغامر الإسباني الذي لم يتردد في عبور حدود العالم المعروف ونهب القارات والحضارات. كما أدت النهضة كذلك إلى نشأة علاقة جديدة بين الإنسان وربه. وفي هذا الصدد يظهر التساؤل الكبير. فهذه العلاقة هي بالتأكيد من أكثر المظاهر إيجابية لهذه النهضة، إذ أثارت قضية الإنسان على عكس ما كان سائداً في العقائد القديمة.

وبدأت السيطرة التقنية على الطبيعة، مع كل ما ينتج عن ذلك من مظاهر إيجابية وسلبية. فالإنسان ذو الهدف الأوحـد المنغمس في العقلانية السقراطية (فلسفة قائمة على العقل في ميادين المعرفة والأخلاق) أكد ذاته في مغامرة النهضة. واتسم الجانب العملي لهذه العقلانية بالرغبة في تحقيق المنفعة وفرض السيطرة التي تميز الرأسمالية الوليدة.

وهكذا خلف المذهب الذي ينادى بالاستسلام للعقلانية السقراطية، مذهب ضمنى آخر يقوم بالحث على تلك الرغبة في تحقيق المنفعة وفرض السيطرة الرأسمالية.

وأصبحنا نواجه في الربع الأخير من القرن العشرين أزمة عميقة في الثقافة الغربية، نشأت في بادئ الأمر مع ما أطلقنا عليه النهضة. وهي ليست بظاهرة ثقافية ولكنها ظاهرة تجمع بين الرأسمالية والاستعمار.

رأسمالية، أى مجتمع أدى إلى ظهور الإنسان ذى الهدف الأوحـد، الذى يتوقع أن يؤدي التطور اللانهائى للعلوم والتكنولوجيا إلى إشباع رغبته في السيطرة والمنفعة.

واستعمار، أى مجتمع يزعم تحويل الإنسان الآلى إلى المعيار الذى يتم به تقييم كل شىء، والمحور الوحيد للمبادرة التاريخية والمبدع الوحيد للقدرة مستنكراً في ذلك ومدمراً كل الثقافات غير الغربية، وجميع الأنماط الأخرى للتفكير والحياة.

فى ظل هذا المجتمع الذى أصبح يتميز بالديناميكية وليس بالجمود، المجتمع الذى يطغى فيه التغيير على الثبات، نشأ مفهوم التنمية. والتنمية بمفهومها القديم هى تنمية الفرد أولاً وازدهار طاقاته الجسمانية والفكرية والروحية، أى نمو جسده وقوته وقدرته على التطور، ونمو لقدراته فى المشاركة الخلاقة، تحسين الاختراعات الإنسانية القديمة والمعاصرة التى تبنى الثقافة والقدرات العقلية وعلاقات المحبة وحب الآخرين.

إن المشاركة المسؤولة لكل فرد فى المشروعات المشتركة وفى عمل خلاق جوهرى ومستدام، يفتح المستقبل أمام آفاق لانهاية تكشف عن الجانب الرائع فى الإنسان.

وتستلزم تنمية الإنسان تطوير الهياكل والمؤسسات التى تسمح بالتالى:

- إنتاج وتوزيع الحاجات المباشرة (الغذاء - المسكن - والملبس... إلخ) اللازمة لمطالباته المعيشية، وتنمية احتياجاته الأخرى الثقافية والروحية.
- إقامة علاقات اجتماعية تعمل على إذابة الفروق العميقة والمواجهات العنيفة التى تستبعد من هو أكثر ضعفاً وتقضى عليه.
- توفير الحرية وتحمل المسؤولية، وخلق وسائل لتنمية الشخصية تتلاءم مع تنمية كل أفراد المجتمع.

والتنمية - كما تطلق عليها مجتمعاتنا الغربية المعاصرة- يتم تحديدها وفقاً لمعايير معينة أحادية الجانب، واقتصادية صرفة: فهى تنمية نوعية للإنتاج والاستهلاك، لا تعتمد على إرادة الإنسان أو على خاصية من خواص الحياة. ويمكننا عقد مقارنة وتصنيف المجتمعات والشعوب اليوم انطلاقاً من الناتج القومى الإجمالى.

هكذا- وبعيداً عن كل غاية إنسانية- فإن مختلف أشكال الحياة الاجتماعية لا يمكن تقييمها إلا وفقاً للنمو الاقتصادى الذى يتم تحديده حسب النوعية

والفاعلية التقنية وحدها، حتى لو كانت مدمرة، ووفقاً للهيكلية الاجتماعية، حتى لو كانت تعسفية وقهرية.

هل غاية هذه التنمية إذن هو تحقيق المنفعة المادية الاستهلاكية أم تنمية الإنسان؟ علينا أن نختار.

واليوم، تتواجه البلدان «المتقدمة» و«المتخلفة» التي نطلق عليها بنفاق: البلدان «النامية»، في حين أن التباعد بين الفئتين لا ينفك، على العكس من ذلك، في الازدياد.

ودون اللجوء إلى تحليل مسبق للآليات التاريخية التي أضعفت معايير المقارنة وولدت مظاهر الخلل الاقتصادي المتزايد بين الغرب وبقية العالم، يمكننا باختصار القول إنه إذا كان حوار الحضارات - الذي يسمح بالتفعيل المتبادل للثقافات - محظوراً أو زائفاً، فقد أصبح مستحيلاً الخوض فعلياً في هذا الحوار الآن.

ومن اليسير علينا البرهنة على النظرية القائلة بأن العلاقة التي تربط بين «التنمية» و«التخلف» هي علاقة جدلية، فكل منهما يهيئ لنفسه الظروف التي تلائمه وتساعد على النمو. وبطريقة أكثر إيجابية نستطيع القول إن تنمية الغرب كان شرطها الأساسي هو نهب القارات الثلاث واستنزاف ثرواتها لصالح أوروبا وأمريكا الشمالية بالتبادل. فالغرب هو الذي أدى إلى تخلف ما نطلق عليه العالم الثالث.

والتخلف هو التعبير عن علاقة استغلال بلد لبلد آخر^(١)، بمعنى آخر فالتنمية والتخلف هما مكونان لنظام واحد ألا وهو النظام الرأسمالي. إن تكديس الثروات ونمائها (الذي نطلق عليه اليوم لفظ نمو) تم على عدة مراحل:

- إبادة هنود أمريكا بدءاً من القرن السادس عشر.

(١) هذا الاستدلال تم تناوله عدة مرات: فقد تناوله Walter Rodney عن أفريقيا متسائلاً: «كيف أدت أوروبا إلى تخلف أفريقيا؟». وهو يركز في هذا الفصل من كتابه على دراسة Boran عن الهند وعلى دراسة عن أمريكا اللاتينية للكاتب Josué de Castro.

- تجارة العبيد التي كانت ضرورية لاستغلال مناجم وأراضى أمريكا لخلوها من سكانها بسبب هذه الإبادة.

- القضاء على العبودية بدءاً من الثورة الصناعية (التي نشأت بفضل هذا التكدر)؛ لأنه كان لايسمح أبداً بتنفيذ التقنيات الجديدة.

- بداية «الاستعمار» - بالمعنى الصرف للكلمة- أى السيطرة السياسية والعسكرية على أفريقيا وأكبر جزء من آسيا وأمريكا اللاتينية، لضمان الاستثمارات المربحة للغاية فى الصناعة والتجارة عن طريق فرض الأسعار البخسة على الأيدى العاملة، والأسعار المرتفعة للمنتجات المستوردة.

وأخيراً مع تشكيل ونمو الشركات متعددة الجنسيات، ظهر نمط جديد من استغلال العالم الثالث، فهذه العلاقات لم تعد ثنائية بين البلد الأم والمستعمرة.

فالشركات متعددة الجنسيات- وهى شركات أجنبية داخل حدود الدول الوطنية- تنظم فى الواقع عملية نهب، ليس فقط على المستوى القومى ولكن على المستوى العالمى، معتمدة فى بعض الأحيان على القوى الكبرى (الولايات المتحدة على سبيل المثال) التى تقوم بتوجيه اقتصادها وسياساتها، وتلجأ فى بعض الأحيان إلى آلتها العسكرية (كما هو الحال فى جواتيمالا وفيتنام أو العراق) كما تعتمد فى أحيان أخرى على المؤسسات الدولية التى تلعب داخل هذه الشركات دوراً حاسماً.

جمعت النهضة الغربية فى بادئ نشأتها بين الرأسمالية والاستعمار، تلك النهضة المقنعة وراء الفلسفة الثنوية اليونانية (مذهب يقول بأن الكون خاضع لمبدأين متعارضين أحدهما الخير والآخر الشر)، وبخاصة فلسفة أفلاطون، والمتخفية كذلك خلف الإصلاح الدينى، وأبرز مثال على ذلك هو مبدأ انتزاع الأراضي من الكنيسة.

فنصف أراضى أوروبا كانت تتبع الكنائس الرومانية الإمبريالية قبل أن يقوم

بانتزاعها منها كل من لوثر وكالفن، واعتقدت أوروبا منذ ذلك الحين أنها أصبحت تمثل مركز العالم.

ولقد تدفق الذهب والفضة من الهنود الغربيين، أى هنود أمريكا، نحو أوروبا، مما أدى إلى التوسع الهائل فى اقتصاد السوق. ولقد ازدادت كمية الذهب والفضة المصادرة إلى أوروبا بنسبة ٨٠٪ فى القرن السادس عشر، مما نتج عنه ارتفاع معدل الوفيات بين الهنود؛ بسبب الأعمال الشاقة فى مناجم المعادن النفيسة.

والأكثر أهمية من ذلك كان تدفق الثروات الغذائية من أمريكا إلى أوروبا، مما وضع حداً لمجاعة العصور الوسطى، وأعطى دفعة لا مثيل لها لنسبة المواليد. فلقد أطلق فرناند برودال فى عام ١٩٨٢م لفظ «المحاصيل المعجزة» على البطاطس وعلى الذرة المكسيكية التى وصلت إلى أوروبا. كما ذكر أن البطاطس غطت ٤٠٪ من استهلاك الحبوب. أما فى أيرلندا - حيث بدأ تطبيق زراعتها - ارتفع تعداد سكانها إلى ثلاثة أضعاف.

عندما بدأ الأوروبيون فى استيراد القطن الأمريكى طويل التيلة، حققت صناعة النسيج الأوروبية تقدماً ونهضة غير مسبوقة على حساب النساجين الهنود والعبيد القادمين من أمريكا لإنتاج هذا القطن.

إن أسطورة النهضة الأوروبية التى تخفى وراءها زوال صفة «الإنسانية»، أدت فى الواقع إلى سيطرة السوق وتفردده وإلى تقديس المال، وانقسام العالم عن طريق النهب الاستعماري والاستقطاب المتزايد - حتى فى أوروبا - إلى قسمين: من يملك ومن لا يملك.

والانقسام يعنى تدمير الإرادة الجماعية لتحقيق الصالح الخاص. وقد كان هذا الانقسام واضحاً عند الرومان.

ولقد أبرزت العبقريات الكبيرة للعصر هذا التفكك والانحلال منذ بدايته:

- فشكسبير كان من أفضل من قاموا بفهم ووصف آليات تفكك عالمنا الحالى فى نهاية القرن العشرين.

- كان سرفنتاس أفضل من قام بتحديد السبيل الوحيد لإحباط عملية التدمير هذه.

- ففي عام ١٦٠٥م أظهرت مسرحية «الملك لير» انهيار عالم يقوم المجانين فيه بقيادة العميان: «وهكذا سوف يضمحل العالم الكبير حتى الفناء». والملك لير ما هو إلا «جزء من هذا الدمار»، ولقد طرح السؤال الحاسم: «من يستطيع أن يقول لى من أنا؟»، يرد دون كيشوت فى نفس هذا العام ١٦٠٥م، «أنا أعرف من أنا». وقد كان هو الآخر فى خضم المأساة، ولكنه كان يتعايش مع الإله، وكان لديه هدف ومعنى للحياة، وكان يعرف أن عالم الرعية ليس هو العالم الحقيقى.

وعالم سرفنتاس وشكسبير هو نفس عالمنا، إلا أنهما عاشا عصر النهضة بينما نعيش نحن عالم الاحتضار.

إن ما نطلق عليه لفظ نهضة ما هو إلا رفض لكل قيمة مطلقة، وبالتالي لكل نتيجة طبيعية لها، وفرض حياة الغابة، كما أنه أدى إلى ظهور المتوحشين (مصطلح يعبر عن الجرأة والتحرر من القيود التقليدية أطلق فى فرنسا حوالى عام ١٩٥٥م).

إن لفظ «حقيقة» المتفق عليه فى عصر النهضة ما هو فى الواقع إلا كذب وافتراء، وقد نستخدم بدلاً منه «خضوع الإنسان».

فقد كان سرفنتاس وشكسبير من أوائل من قالوا: «إنى أرى الملك عارياً!» فحقيقتك أيها الإنسان حقيقة زائفة: ليس لها معنى لأنك تفتقر إلى الهدف.

فالمادة تحول كل القيم إلى قيم تجارية «فقيمتك فيما تملك، فتملك على قدر ما تساوى» (II, 20, p. 669 et, 43, p. 831) «فالثروات قادرة على سد فجوات كثيرة (دون كيشوت) (II, 19, p. 655)».

ولقد استنكر سرفنتاس كذلك الفساد الأخلاقي الناجم عن ازدهار الرأسمالية فى عصر النهضة بنفس الوضوح والحدة التى أظهر بها شكسبير «الأحمق الذى عرف كيف يختر أمام الأبله المكسو بالذهب».

«ماذا أرى هنا؟ ذهب! هذا المعدن الأصفر البراق والشمين! إن القليل منه يكفى لتحويل الأسود إلى أبيض والقبيح إلى جميل والظالم إلى عادل والدنىء إلى نبيل والعجوز إلى شاب والجبان إلى جسر. وهذا سوف يؤدى إلى إبعاد القساوسة وخدام الكنائس من كنائسكم وسوف يقلق سكينه المرضى. إن هذا المال الأصفر سوف يحطم ويلغى التطلعات ويبارك الملعون ويؤدى إلى تقديس داء البرص الأدكن ويضع اللصوص فى مناصب الشيوخ مع منحهم الألقاب والثناء عليهم واحترامهم. هذا هو ما دفع الأرملة الحزين للزواج مرة أخرى.

إن مستشفى المصابين بالقرح الشنيعة يؤدى إلى الغثيان مع الشعور بالنفور، لكن هذا الذهب يعطر جو هذه المستشفى ويطيبه ويصنع منه كذبة جديدة. . . هيا أيها الغبار الملعون الذى يحط من شأن كل الجنس البشرى ويزرع الشقاق، بين جموع الأمم، سوف أعيدك من جديد إلى موطنك الأصلي، فى الطبيعة»^(١).

ولقد كان سرفنتاس كذلك واضحاً، فما كان يعتقد أنه ملحمة صوفية رآه على أنه واقع منفر للاستعمار. ففى مسرحية «غور استرمادور» وصف الهند الشرقية بأنها «مأوى وملجأ البائسين الإسبان، ومحراب الساقطين، وجواز مرور المجرمين. . . ومخية آمال الكثيرين، والمداوية للقليلين» (Pléiade.p.1301).

عبر سرفنتاس عن خيبة أمله المأساوية فى «تحول الأحلام» على لسان دون كيشوت فى سياق حديثه عن الأعمال العسكرية والآداب، معلناً أسفه «لممارسة مهنة الفارس الذى يجول ويصول فى عصر بغيض مثل العصر الذى نحيا فيه» (I,37-38).

واستخلص دون كيشوت مصدر إلهامه من آلية هذا العالم ومن الإنسان

(1) Shakespeare: "Timon d'arhènes" (Acte Scène 3) Pléiade,p.989.

المجرد من البعد الروحاني قائلاً: لقد حلت السلطة المطلقة للمال محل السلطة الإلهية، وأصبحت هي سيدة الإنسان والمجتمعات. «فالمال هو أفضل أساس لهذا العالم» (II, No, p66)، «والكسب المادي يستطيع تحقيق كل شيء» (II, 20, p.667).

لقد تدفق المال من الأمريكيتين وأغرق إسبانيا. وأصبح المال هو القوة المحركة لكل الأفعال.

هذا هو العالم الذي تحول مرة أخرى إلى عالم متوحش يحيا في أدغال رأس المال بفضل هذا النظام المنبثق عن النهضة والقائم على المادة والمصلحة الشخصية.

«.. أيها الإنسان إنك تأخذ عن الحيوان أكثر مما تأخذ عن بني جنسك» (II, 28, P.732).

ذلك هو المقصود بنشأة عالمنا.

لقد عاصر كل من شكسبير وسرفنتاس بداية الحقبة التي تم فيها إرساء قواعد هذه اللعبة.

واليوم مع «بيكيت - Beckett» وحتى ظهور «جودو - Godot» نصل إلى نهاية هذه الحقبة.

ومع الحقبة التاريخية التي بدأت عام ١٤٩٢م بغزو أمريكا، أدرك البعض معنى البربرية الجديدة لهذا الغرب، الذي اعتبر نفسه المصدر الوحيد للحضارة ورسول الحداثة. ولقد أثبت أولئك أن الغرب قد انحرف عن الطريق السليم خلال هذه الحقبة.

ولقد تجاوز أحدهم هذا الإدراك الناقد وأثبت - في بداية عهد الرأسمالية في إنجلترا - أن حياتنا كانت يمكن أن تختلف عما كانت عليه. ولقد نجح في ذلك

بتجاوزه حدود وتعصب أوروبا، مذكراً بالإمكانات المفتوحة أمامنا بعد التعرف على «العالم الجديد».

ولقد كتب هذا الشخص أول مؤلف عن «المدينة الفاضلة» - «يوطوبيا» ولم يكن بالشخص الذى يمكن أن نطلق عليه «الرجل الخيالى»، ولكنه كان على العكس من ذلك «رجلاً عملياً» شغل على التوالى منصب مفاوض تجارى مع كبار تجار الصوف الهولنديين، ثم رئيس وزراء إنجلترا فى الوقت الذى نشأت فيها أول رأسمالية فى العالم.

هذا الشاهد البارز هو «توماس مور - Thomas More» (1478-1535) ولم تكن رؤيته المستقبلية تركز على الأحلام الشخصية ولا على النزوات التخيلية. ولكن على العكس من ذلك كان كتابه الأول عن المدينة الفاضلة عبارة عن تحليل عميق للصورة التى رآها عن المجتمع الإقطاعى والزراعى، وعن الرأسمالية التجارية التى بدأت مع صناعة الصوف.

ونظراً لشغله منصب محامى اتحاد التجار، استطاع التعرف على كل آليات تجارة الصوف مع الفنلنديين بعد أن تم إيفاده سفيراً فى Anvers لفض المنازعات مع النساجين وحل خلافات التجار الإنجليز والفرنسيين. ولقد خولت له بعد ذلك عضويته فى البرلمان حق الإشراف على مصروفات الدولة.

ومع بداية عهد هنرى الثامن، كتب توماس مور أنه تجرأ وتصور أن «يصبح الملك أبا للشعب وليس سيداً للعبيد»، وفى عام ١٥٢٩م تقلد أعلى مناصب القضاء فى إنجلترا، إذ أصبح مستشار الملكة، ولكنه رفض بصلابة طلاق هنرى الثامن من كاثرين الإسبانية بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما رفض مرسوم الهيمنة الذى صدر عام ١٥٣٣م، وجعل من الملك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية، ولذلك تم إعدامه يوم ٦ يونيو عام ١٥٣٤م.

وهكذا يعتبر أول مؤلف عن المدينة الفاضلة - الذى يتضمن بوادر الفكر الاشتراكى الأوروبى - هو عمل من أعمال رجل لا يمكن تسميته «الرجل

الخيالى»، ولكنه كان رجلاً واقعياً استطاع - على كل مستويات المسئولية التى تحملها (حتى وصل إلى أعلى المناصب) - أن يعيش بدايات الرأسمالية التجارية ويتعرف عليها ويقوم بتحليل آلياتها وآثارها السلبية.

ولقد كان الجزء الأول من مدينته الفاضلة مخصصاً لدراسة التغيرات الإنجليزية.

فمن أجل تحقيق ازدهار تجارة الصوف، قام الإقطاعيون القدامى والتجار الأغنياء باحتكار الأراضي التى كان يزرعها صغار الفلاحين بالمحاصيل الزراعية. وقاموا بطردهم من مزارعهم وتسوير (صدر مرسوم التسوير) المساحات الشاسعة لتربية الخراف من أجل سوق الصوف. وقام توماس مور بوصف دقيق ومأساوى لهذه العملية للنهضة الوليدة قائلاً: «وهكذا قام أحد البخلاء الجائعين بإحاطة المساحات الشاسعة بسور، وتم طرد المزارعين الشرفاء من منازلهم، بعضهم عن طريق الغش والبعض الآخر عن طريق العنف. أما سعداء الحظ منهم فقد تم طردهم بسلسلة من الإجراءات الكيدية والمقلقة لإجبارهم على بيع ممتلكاتهم. وقامت هذه العائلات التى تتميز بكثرة عدد أفرادها أكثر من ثرائها (لأن الزراعة تحتاج للأيدى العاملة الوفيرة) بالهجرة عبر الريف. فالأزواج والزوجات، الأرامل والأيتام، الآباء والأمهات، والأحفاد، قاموا جميعهم بالهرب وهم يكون منازلهم التى شهدت مولدهم والأرض التى قامت بتغديتهم، وهم لا يستطيعون إيجاد المأوى الذى يجمع شملهم. وهكذا قاموا ببيع كل ما استطاعوا حمله من متاع بأسعار بخسة. وبعد نفاد هذا المورد ما الذى كان ينتظرهم؟ السرقة؟ الشنق فى مزارعهم؟».

«ضعوا حدًا للبخل الأنانى للأغنياء، اسلبوهم حق الاحتكار، اعملوا على تنمية الزراعة بصورة كبيرة، أنشأوا مصانع الصوف واخترعوا صناعات أخرى. أين يذهب هذا الحشد من البشر الذى حولهم الفقر - حتى الآن - إلى لصوص أو مشردين؟»، هكذا تساءل توماس مور.

وفى رده على أولئك الذين يرون «الشنق الوسيلة الوحيدة للقضاء على

للصوصية» قال توماس مور: «إن اقتناعى الوثيق هو أنه من الظلم قتل رجل لسرقته المال طالما أن المجتمع الإنسانى لا يمكن تنظيمه بحيث يضمن لكل فرد نصيباً عادلاً من الثروات».

تلك هى الفكرة الأساسية التى نستخلصها من نقد النظام القائم فى إنجلترا بعد انتصار الرأسمالية.

«حيثما تصبح الملكية حقاً شخصياً، وحيث يتم حساب كل شىء بالمال، فإننا لا نستطيع فى مثل هذا المكان إقامة العدالة وتنظيم الملكية الاجتماعية، إلا إذا كنتم تطلقون لفظ عادل على مجتمع أفضل ما فيه هو مشاركة الفئات الأكثر شراً، وكنتم تعتقدون أن الدولة المحظوظة تماماً هى تلك التى تقع فيها الثروات العامة فريسة فى قبضة حفنة من البشر لا تشبع من الملذات فى حين أن الأغلبية يلتهمها الفقر».

«إن تحقيق العدالة- على ما أعتقد- يستحيل فى دولة تصبح فيها الملكية خاصة ومطلقة؛ لأن كل فرد فيها يستطيع تحت بعض المسميات والحقوق التملك على قدر ما يستطيع. وهكذا فإن الثروة القومية مهما كان مقدارها يثول أمرها فى النهاية إلى حفنة من الأفراد لا تترك لغيرها سوى الفقر والبؤس».

«هذا هو ما يقنعنا بطريقة دامغة أن الوسيلة الوحيدة لتوزيع الثروات بالمساواة والعدل وتحقيق السعادة للجنس البشرى تكمن فى إلغاء الملكية. طالما ظل حق الملكية هو أساس البناء الاجتماعى، فإن الفئة العظمى سيقصر نصيبها على البؤس والعذاب واليأس».

«ولهذا فإننى عندما أنظر وألاحظ الجمهوريات المزدهرة حالياً، فإننى لا أرى سوى تآمر الأغنياء الذين يحققون أهدافهم تحت شعار أو مسمى «الجمهورية» المطاط. فالمتآمرون يسعون بكل الخدع وبكل الوسائل الممكنة- إلى بلوغ هذا الهدف المزدوج: أولاً: التحقق من امتلاك ثروة شاسعة ومكتسبة بطرق غير شريفة. ثانياً: استغلال بؤس الفقراء وخداعهم وشراء صناعتهم وجهدهم بأقل

الأسعار. وتحولت المكائد التي حاكها الأغنياء باسم الدولة وبالتالي باسم الفقراء إلى قوانين».

وفى مواجهة هذا المجتمع القائم على السلطة المطلقة لسوق المال، لم يعمد توماس مور إلى ذكر الهواجس الرومانسية، فقد أراد أن يصبح عملياً في مقترحاته كما فى نقده.

وقد أثبت أن فرصة إنشاء المجتمع الذى يختلف جذرياً فى تكوينه قائمة؛ لأنه قائم بالفعل فى العالم الجديد (أمريكا الهنود الحمر) حتى مع أوجه القصور فيه.

وهنا يكمن نوع آخر من التنمية التى لا تهدف إلى تكديس الذهب، ولكن إلى تحقيق رفاهية الإنسان «والسعادة الحقيقية تتركز على هذه التنمية الكاملة»، وقد اشتق توماس مور مصادره من:

- تقارير «أمريجو فيسبوسى - Amerigo Vespucci» (الذى أطلق اسمه على أمريكا) عن رحلاته الأربع للعالم (الجديد التى نشرها عام ١٥٠٧م).

- شهود العيان مثل محدثه «رفائيل - Raphaël» الذى يحدثنا عنه قائلاً: «هو من بلاد البرتغال، ولقد ترك ميراثه لإخوته، إذ كان لا يزال شاباً يلتهمه شغف الطواف بالعالم، فتعلق بشخص ومغامرة أمريجو فيسبوسى، فلم يترك هذا الملاح العظيم لحظة واحدة خلال الثلاث رحلات الأخيرة من بين رحلاته الأربع».

ويحدثه رفائيل قائلاً: «لم يخطر على مخيلتكم أى فكرة عن جمهورية شبيهة وحتى لو خطرت فستكون فكرة خاطئة. لو أنك تواجدت فى المدينة الفاضلة وعاصرت وشاهدت مثلى هذه المؤسسات وهذه العادات حيث قضيت هناك خمس سنوات من عمرى، ولم أقرر الخروج منها إلا لكى أكشف للعالم القديم هذا العالم الجديد، لو أنك تواجدت هناك لاعترفت أن هذا المجتمع المنظم تنظيمًا مثاليًا، لا نظير له فى أى مكان آخر».

ويقول توماس مور «إنه لاحظ هناك عددًا كبيرًا من القوانين القادرة على تنوير وإحياء الأمم الضعيفة وممالك أوروبا الهرمة.. كم من القرون تلزمنا كي ننقل عنهم أفضل وأكمل ما فى حضارتهم؟».

وعلى عكس الاقتصاديين فى الرأسمالية الوليدة- التى تعتبر قوانين السوق قوانين طبيعية- اكتشف رفائيل «شعوبًا ومدنًا وضواحي لا تتلاءم البتة مع مؤسسات قارتنا التى يعبد فيها الذهب كالإله، ويسعى الجميع وراءه لأنه سيد الثروات.. ويتسابق الجميع لامتلاك الذهب والفضة بطريقة مشينة. ولايتعاملون معهما كبقية العملات».. «على الرغم من أنهما لا يتمتعان بأية ميزة ولا أى استخدام ولا أية خاصية إضافية سوى تلك التى منحتم إياها الطبيعة.. إن ندرتهما هى التى دفعت الجنون البشرى ليضفى عليهما هذه القيمة الغالية».

«فى المدينة الفاضلة لا مكان للبخل حيث يندعم التعامل بالمال، وبناءً عليه يمكننا التساؤل عما إذا كان هناك مصدر من مصادر التعاسة لم تتمكن هذه المدينة من القضاء عليه؟ من يعرف ما إذا كانت جرائم الغش والسرقة والنهب والمضاربة والتمرد والنزاع والعصيان والقتل والخيانة والفساد - التى يقتص منها المجتمع بفرض العقوبات المستمرة دون الحول من ارتكابها - سيأتى اليوم الذى تختفى فيه؟ ويتلاشى بالتالى الخوف والقلق والإرهاق والأرق. والفقر نفسه- وهو الآفة الوحيدة التى قد تحتاج إلى المال- قد ينحصر إذا ما تم إلغاء التعامل بالعملة تمامًا».

«وعلى العكس من مجتمعاتنا- التى يتم فيها تقييم كل شىء بالمال- فإن الأساس الذى كانت ستقوم عليه هذه الجمهورية الغريبة كان بمقدوره القضاء على كل هذه الأفكار، أقصد بذلك قيام مجتمع معيشى وحياتى لا يتعامل بالمال».

أما المجتمع الذى يتحكم فيه السوق فى كل العلاقات الاجتماعية، يتحول

كل فرد فيه إلى منافس ومتسابق بحيث يصعب إنجاز أى عمل جماعى، بل تنتصر المصلحة الشخصية.. «فالمنفعة المادية التى تتحقق فى هذا المجتمع لفرد ما، تُسلب بطريقة أخرى من فرد آخر» وفقاً لتوماس مور.

وفى مقابل هذه الفردية (مذهب ينظر إلى الكائن كفرد منفصل عن سواه ويدعو إلى التفكير بالذات وحدها) هناك الحياة الجماعية، أى المجتمع الذى يشعر فيه كل فرد بأنه مسئول عن الآخرين.

ويقول توماس مور «هناك فى أى مكان آخر غير المدينة الفاضلة يتم إقرار مبدأ ملكيتك وملكيتى وفق نظام معيب ومعقد الآليات، وآلاف القوانين لا تكفى كى يستطيع كل فرد الحصول على ملكية يدافع عنها ويفصلها عن ملكية الآخرين».

ويستمر رفائيل فى حديثه قائلاً: «لقد حاولت أن أصف لك شكل هذه الجمهورية التى أعتقد أنها ليست فقط الأفضل، ولكن الوحيدة الجديرة بأن يطلق عليها لفظ جمهورية، ففى أى مكان آخر لا يهتم كل من يتحدث عن المصلحة العامة إلا بمصلحته الشخصية. أما فى هذه الجمهورية حيث تنعدم الملكية، يهتم كل فرد وبصورة جدية بالمصلحة العامة؛ لأن المنفعة الشخصية تختلط فى الحقيقة مع المنفعة العامة».

وفى المدينة الفاضلة حيث تصبح الملكية مشاعاً للجميع، لا يمكن للإنسان أن يشعر بالحاجة، إذ تمتلئ الخزائن العامة ويتم توزيع الثروات بصورة عادلة وبالتالي لن تجد هناك أى فقير أو شحاذ.

إن رفض الرفاهية والمتطلبات الفائضة عن الحاجة «يحصّر عمل السكان هناك فى الوظائف الضرورية»، مما يجعل هذا المجتمع على طرفى النقيض مع المجتمعات التى تؤدى فيها شهية الاستهلاك إلى نشأة التطفل.

«ألا يتصف بالأنانية والجحود ذلك المجتمع الذى يجزل العطاء لأولئك

الذين نطلق عليهم النبلاء والأثرياء والعاطلين وصناع الرفاهية الذين لا يعرفون إلا التملق وإرضاء الشهوات التافهة؟ ذلك المجتمع الذى لا يرحم ولا يكثر بالفلاح وجامع الفحم والعامل والسائق والصانع، أى الفئات التى لا يمكن للمجتمع أن تقوم له قائمة بدونها، ذلك المجتمع الذى يستنزف عنفوان شبابهم كى يحقق من جراء عملهم وكدهم كل منفعة ممكنة».

«ونظراً لأن الأعمال فى هذه المدينة تقتصر على الوظائف الضرورية، فالعمل المادى يتم المجازة فى فترة وجيزة، وعلى الرغم من هذا فالإنتاج وفير وفائض عن الحاجة. وعندما تتكدس المنتجات يتم إصدار تشريع يسمح بتقليص ساعات العمل؛ لأن الحكومة لا تسعى إلى إنهاك المواطنين بالأعمال غير المجدية».

«والمؤسسات الاجتماعية فى المدينة الفاضلة تهدف فى المقام الأول إلى إشباع حاجات الاستهلاك الجماعى والفردى، ثم تترك بعد ذلك لكل فرد الوقت الكافى كى يتحرر من عبودية جسده ويثقف فكره بحرية تامة وينمى ملكاته الفكرية من خلال دراسة العلوم والآداب. إن هذه التنمية الشاملة هى التى تحقق السعادة الحقيقية».

ولقد أشاد توماس مور بالمستوى المتقدم للمعرفة العلمية التى بلغها الهنود خاصة فى علم الفلك.

وعندما أشار إلى حكمتهم وديانتهم أكد على مخبرهم الإنسانى قائلاً: «إنهم يعرفون الفضيلة ويعيشون على سجيتهم. فالله عندما خلق الإنسان لم يحدد له إلا هذا المعيار».

إن سكان تلك الجزيرة التى لا تعتنق المسيحية لا يعترضون على انتشارها؛ لأنهم يزدرون بشدة وباسم الأخلاق الإنسان الذى يهين عزه نفسه لدرجة أن يعتقد أن العالم يسير وفق نظام عشوائى، وذلك لأنهم مسيروا بالدين الفطرى الموجود داخل كل إنسان: فعندما نقول الله - مهما تكن تسميتنا له - فهذا يعنى أن للحياة معنى.

«وهكذا عندما أقارن بين المؤسسات الأوروبية ومؤسسات الدول الأخرى، أستطيع أن أعجب بالحكمة والإنسانية من جانب، وأرثى للجهل والبربرية من جانب آخر».

والكاتب الفرنسي «مونتاني - Montaigne» (١٥٣٣-١٥٩٢م) فى الفصل الثانى من الكتاب الأول لمجلده «Essais» أصدر حكماً قاسياً- فى هذا الفصل الذى يحمل عنوان: «أكلو لحوم البشر»- على التوجهات الجديدة للتاريخ، وأشار إلى الحال الذى يمكن أن يصبح عليه التقاء العالمين إذا ما التقيا على الحوار والتفاعل المتبادل وليس على إلغاء «الآخر» أو على السلب بالقوة وإبادة الهنود الأمريكين.

بدأ مونتاني بقراءة كتاب «لوپيز - Lopez» «التاريخ العام للهند» قراءة نقدية واستمع إلى أقوال ملاح أبحر للأمريكيين «وجعله يلتقى عدة مرات بالعديد من الملاحين والتجار الذين تعرف عليهم فى هذه الرحلة».

(Essais, liver I, chap.31)

ولم يكتف مونتاني بلعن مذابح الغازين متسائلاً: «من الذى حدد بصورة دائمة السعر السائد فى السوق والتجارة؟ كم من المدن تم سحقها وكم من الأمم ثم إبادتها وكم من ملايين البشر تم قتلهم بحد السيف؟. لقد تم اجتياح أغنى وأجمل بقعة فى العالم من أجل تجارة الآلئ والتوابل: يالها من انتصارات تحققت بفضل التفوق الآلى، فالطموحات والأحقاد العامة لم تدفع قط البشر فى مواجهة بعضهم البعض لمثل هذه العداءات الفظيعة والمصائب البائسة».

(Essais, liver III, Chap.VI)

على العكس من ذلك- يضيف مونتاني قائلاً (١، ٢١): «إن هذه الأمة لا تعرف البربرية والوحشية.. إلا إذا كنا نطلق كلمة «بربرى» على كل ما هو مخالف للعرف.. إنهم «همج» بالمعنى الذى نطلقه على النباتات «البرية» التى

تنبتها الطبيعة وحدها. . إن الذين أفسدوهم بزيفهم وأبعدوهم عن العرف السائد هم الذين يستحقون أن نطلق عليهم لفظ «همج».

ويؤكد السيد «Bartolomé de las Casas» همجية الغازين قائلاً: «كى يطعموا كلابهم، كانوا يكبلون الهنود ويقتادونهم ويقتلونهم ويجعلون من لحمهم البشرى جزارة متنقلة».

ولقد كتب مونتاني الحكيم عن آكلى لحوم البشر بعد أن استمع إلى أخبارهم من روايات شهود عيان - قساوسة وقضاة - قائلاً: «لست آسفًا لإدراكنا لهذه البربرية المرعبة لتلك الممارسات. . إننا نحكم على أخطائهم بينما نغض البصر عن أخطائنا. . أعتقد أن الوحشية تكمن فى أكل رجل حى أكثر من أكله ميتًا وتمزيقه بالتعذيب والتنكيل. . ودفعه إلى الكلاب لتنهشه. . ثم شيه وأكله بعد موته. . نعم نستطيع تسميتهم بالهمج، ولكنهم ليسوا همجًا مقارنة بنا؛ لأننا تفوقنا عليهم فى كل أنواع البربرية (١، ٣١)».

ولقد قارن مونتاني بين «شجاعة الهنود الذين يفضلون طواعية المعاناة والموت على الخضوع لسيطرة أولئك الذين استغلوهم بصورة مشينة، وبين النصر الآلى للغازين الذى تحقق بسبب اختلاف الأسلحة المستخدمة» (Essais, III.6).

وفى مقابل شراة الغريين- المهتمين فقط بالسعى وراء مناجم الذهب - ذكر مونتاني روعة عمارة الهنود «وعظمة مدن كوزكو Cuzco ومكسيكو Mexico» (III 6).

ولقد أكد العديد من الشهود رأيه عن هذا العمران: فالمؤرخ «برنال ديزكاستيلو - Bernal Diez de Castillo» الذى دخل مدينة «تينوشتيلان - Tenochtitlan» (المكسيك حاليًا) مع قوات القائد «كورت - Cortes» كتب قائلاً: «كان بيننا جنود من القسطنطينية وإيطاليا وروما، وكانوا يقولون إنهم لم يروا فى أى بقعة أخرى مثل هذا المكان الذى يتمتع بالانسجام الشديد والنظام على الرغم من الأعداد الغفيرة التى يضمها».

وفى بيرو صاح «Pizarre - بيزار» نفسه قائلاً: «إن روعة هذه الطرق لا يضاهيها شيء فى المدن المسيحية»، وأكد العالم الألمانى Guillaume de Humboldt ذلك بعد عدة أعوام قائلاً: «إن قارعة الطريق هذه الممهدة بالأحجار الكبيرة، يمكن مضاهاتها بأجمل شوارع الرومان، وهى من أكبر الأعمال التى نفذها الإنسان من حيث الأهمية والعظمة».

إن هذه الشبكة البرية كانت مثلاً لطرق السير الممهدة بالأحجار الحمراء فى مجتمع ضرب المثل الأول فى عدم اتباع نظام الملكية الخاصة فى ظل عصر الحضارة المتطورة للغاية التى تمجد العقول الفياضة لأوروبا. ومن المعتقد أن «كامپانيلا - Campanella» قام بتشيد مدينة الشمس الفاضلة فى بيرو، وكتب القس «موريللى - Morelly» قائلاً: «إن إمكانية إنشاء نظام لا يعترف بالملكية الخاصة ليس أمراً خيالياً، بما أن عادات الشعوب (التي يصفها فى مؤلفه Basiliade) تشبه تقريباً عادات شعوب الإمبراطوريات الأكثر ازدهاراً والأكثر انضباطاً على وجه الأرض، وأقصد بها بلاد بيرو».

وفىما يتعلق بالتنوع الجمالية لأعمال الهنود الأمريكيين، لدينا هذه الشهادة التى أدلى بها «ألبر بورير - Albert Bürer» فى رسائله: «لقد رأيت الأشياء المجلوبة إلى ملك المدينة الذهبية الجديدة: شمس ذهبية، وهى كتلة كبيرة الحجم وقمر ضخمة من الفضة... إن رؤية هذه الأشياء تسر الأعين أكثر من رؤية المعجزات نفسها... لم أر شيئاً أدخل السرور على قلبى مثل تلك الأشياء».

ولم يتبق سوى القليل من هذه الأعمال؛ لأن المغامرين الإسبان قاموا بصهرها فى شكل سبائك.

لقد تفوق علم شعب مايا (شعب يقطن هندوراس البريطانية وشمال جواتيمالا) فى العديد من المجالات على مثيله الأوروبي فى نفس ذلك العصر. ففى علم الفلك، قام كهنتهم بحساب السنة الفلكية ٢٢٢, ٣٦٥ يوماً وهو

الرقم الأكثر دقة من تقويم جريجوار Crégoire XIII (١٥٠٢ - ١٥٨٥م) الذى أجراه بعد ذلك بخمسة قرون، إذ إنه لا يختلف إلا فى حساب يوم واحد على مدار ٦٠٠٠ عام.

كما قاموا بإعداد جدول يتنبأ بالخرسوف الشمسى، وهو الأمر الذى كان يتطلب تقدمًا كبيراً فى علم الرياضيات، فنظام الرصد الرقمى لديهم تفوق بكثير على النظم التى عرفها اليونانيون والرومان.

ولم يكن هناك من شعب فى العالم يضاهى هنود أمريكا (خاصة المايا) فى زراعة النباتات الداجنة المتنوعة مثل الذرة والبطاطس والمينهوت (جنس نبات يستخرج من جذورها دقيق نشوى) والمطاط.

وتساءل مونتاني عن الحال الذى كان سيصبح عليه العالم لو التقت أوروبا وأمريكا الهندية فى أمور تختلف عن طموحات المرتزقة والتجار المتعطشين للذهب.

«إن عالمنا لا يلبث يلتقى بآخر.. وهذا العالم الآخر سيدخل عصر الأنوار بعد أن نخرج نحن منه.. على الرغم من أننى أخشى نقل العدوى إليه فنعجل بذلك اضمحلاله وفناءه... إن معظم الأحاديث والمفاوضات التى أجريناها معهم تدل على أنهم ليسوا فى مرتبة أدنى منا من حيث وضوح الفكر التلقائى والفتنة.. كم كان الأمر سهلاً لتحقيق المنفعة المادية فى تعاملنا مع هذه النفوس البريئة..»

«على العكس من ذلك لقد استغللنا جهلهم وعدم خبرتهم فى إخضاعهم لعادتنا كى يحذو حذونا، سواء بالخيانة أو بالإغراء، وبالترف أو بالبخل، وبكل أنواع الممارسات اللاإنسانية والقسوة» (Essais III,6).

إن هذه الملاحظات التى أوردناها لا تعتبر خروجاً عن الموضوع ولكنها رد على الادعاء الغربى بأنه يمثل النموذج الوحيد للحدثة والتقدم. إنه إشارة للالتقاء الحقيقى والمحتمل فى المستقبل للحضارات من أجل إقامة وحدة غير متسلطة وفى تلائم وانسجام تام مع العالم.

وبسبب هيمنة الغرب وازدراء الثقافات الأخرى وتدميرها، يمكننا القول بأن العصور الحديثة - كما نطلق عليها في كتب التاريخ - ما هي إلا رفض للوحدة الإنسانية.

إن الثقافة الغربية المسيطرة منذ خمسة قرون، والتي تعتبر نفسها المصدر الوحيد الخلاق للقيم والمحور الفريد للمبادرة التاريخية، تقوم أساساً على ثلاث مسلمات للحداثة:

- مسلمة آدم سميث في العلاقات الإنسانية والقائلة «عندما يعمل كل منا في سبيل منفعة الخاصة، فهو بهذا يساهم في تحقيق المنفعة العامة».

- مسلمة ديكارت في علاقتنا مع الوجود التي تجعلنا أسياد وملاك الوجود.

- مسلمة فاوست في علاقتنا المستقبلية، حيث كتب الأديب المسرحي «مارلو - Mar Lowe» (١٥٩٣م-١٥٦٣م) في مسلمة فاوست الأولى: «أيها الإنسان، تحول بفضل عقلك القوى إلى إله وإلى سيد ومولى كل عناصر الكون».

إن مسار تاريخ الحضارة الغربية- القائم على هذه المسلمات الثلاث من حيث التفوق والتي شهد بعضها بفضل انتشارها نهاية هذا التاريخ- أبرزه الفلاسفة الإنجليز والفرنسيون والألمان.

- أبرزته الفلسفة الإنجليزية بدءاً من مسلمة آدم سميث وحتى توحيد السوق.

- بدأت الفلسفة الفرنسية من مسلمة ديكارت وحتى عصر الحاسب الآلي.

- تناولته الفلسفة الألمانية بدءاً من مسلمة فاوست وحتى عالم اللامعنى.

أ- من مسلمة آدم سميث وحتى توحيد السوق (الفلسفة الإنجليزية)

ظهر النمط الأول للرأسمالية والوعى بأسسها في إنجلترا. ويشير التقرير الرسمى لشركة الهند عام ١٧٧٠م إلى أن «أكثر من ثلثى السكان هلك في المنطقة التي كانت تتمتع بازدهار زراعى، وانتشر البؤس بشدة في مناطق أخرى».

وعندما تولت الدولة الإنجليزية شئون الشركة، قام اللورد كورنواليس - الحاكم العام للهند- بعمل إحصائية ذكر فيها «أنه يستطيع التصريح - بكل تأكيد - أن ثلث أراضي هندوستان تحولت الآن إلى غابة تقطنها الحيوانات المفترسة». أما القانون العقارى الدائم الذى أصدره عام ١٧٩٣م فى البنجال وبيهار، والذى يقسم الهند إلى أربع مناطق كملكيات خاصة، فقد أتاح الفرصة لسلب الأراضي التقليدية الريفية من الفلاحين الفقراء، تلك الأراضي التى كانت تسد رمقهم، وكان هذا القانون وهذه السياسة هما السبب الرئيسى فى مجاعة الهند الأولى: فقد وقع مليون قتيل بين عامى ١٨٠٠م - ١٨٢٥م، وأكثر من ٥ ملايين من عام ١٨٥٠م وحتى عام ١٨٧٥م، و١٥ مليوناً فى الفترة من ١٨٧٥م وحتى ١٩٥٥م. وهكذا تم القضاء على الاقتصاد الزراعى المعيشى فى الهند، وتلاه انهيار صناعة النسيج، فقد عمدت لعبة التحررية إلى تحويل هذا البلد لمستورد أقمشة من مانشستر فى الفترة من عام ١٨١٤م وحتى عام ١٨٣٤م وارتفع رقم الاستيراد من مليون دولار إلى ٥١ مليوناً.

أما أولئك الذين نطلق عليهم «الفلاسفة الإنجليز» فى كتب التاريخ الرسمية، فقد كانوا فى بادئ الأمر رجال سياسة يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الإمبريالى لعصرهم ويرتزقون من خدمتهم بالتنظير المناسب.

وفى مؤلفه بعنوان عناصر القانون السياسى والطبيعى

Eléments de la loi politique et naturelle (1640)

استخلص «هوبس - Hobbes» (١٥٨٨م - ١٦٧٩م) الذى يرى أن القوانين الرأسمالية هى قوانين طبيعية، مبدأ الاقتصاد التجارى المقر بالملكية الفردية الوحشية والتنافس دون هوادة. وانتهى إلى أن الوضع الطبيعى للمجتمع هو «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، و«الإنسان عدو الإنسان، فى كل شىء».

ويعتقد هوبس - الذى يرى أن فشل الديمقراطية اليونانية هو بمثابة تحذير لنا - أن الحل الوحيد لفرض نظام على هذه الشهيات المتوحشة التى تتواجه مع

بعضها البعض هو فرض الاستبدادية المطلقة. تلك هى النظرية الرئيسية لمؤلفه Leviathan (١٦٥٤م).

وهكذا فقد اكتشف هوبس منطق الليبرالية الذى ترسخ فى القرون الثلاثة التالية: فهو نظام بدأ بالتنافس الأنانى بين الأفراد والأمم على حد سواء، ويمكن القوى من أن يلتهم الضعيف، حتى يتمكن فرد واحد فى نهاية المطاف من فرض ديكتاتوريته المستبدة.

وفى هذا الصدد يرسم هوبس مسار منهج الفردانية التنافسية و نهايته. ذلك المذهب الذى يختلف ظاهره عن باطنه، ذلك الباطن الذى يعبر عن المنطق الخفى لهذا المذهب ألا وهو الديكتاتورية الشمولية، التى تأخذ شكلاً سياسياً مقنعاً ولكن مغالياً ومستبداً من الناحية الاقتصادية؛ لأنها محاولة لفرض الهيمنة الدولية عن طريق توحيد السوق.

أما «جون لوك - John Lock» (١٦٣٢م - ١٧٠٤م) - الذى يعتقد أن العدالة تكمن أساساً فى حماية الملكية - فقد استكمل إعداد منهجه فى المؤلف الذى شرع فى كتابته عام ١٦٧١م ونشره عام ١٦٨٣م بعنوان «دراسة عن التفاهم الإنسانى - Essai sur l'entendement humain».

وهكذا أصبح لوك هو المروج لفكرة إنشاء البنوك، عندما أشاد بنظام الفائدة الربوية اللازمة للدول التى تأسست على جمع رءوس الأموال.

وأصبحت المضاربة هى الساحة الحرة للدفاع عن الملكية: فالفرد أصبح هو الذى يقدر مقدار ربحه، مما خول المالك - فى العقد الاجتماعى - حق الدخول فى لعبة البنوك التى تحولت إلى ميدان قمار.

وبعد تعيينه مبعوثاً ملكياً للتجارة والمستعمرات، ناضل لوك بضراوة لتقييد قوانين المستعمرات الإنجليزية بأمريكا (الممنوحة قبل عهده بموجب ميثاق ملكى)، كى يتم إخضاع اقتصادياتها بصورة دقيقة للبلد الأم وفرض حظر تصنيع البضائع عليها.

وفى الفترة من عام ١٧٢١م وحتى عام ١٧٤٢م، كان «إدمون والپول - Edmond Walpole» هو المتحكم الصورى فى انجلترا، إذ أصبح مستشار وزارة المالية عام ١٧١٥م، بعد سجنه فى برج لندن عام ١٧١٢م بتهمة الفساد.

ولقد أيدته العديد من المنظرين. ففى عام ١٧١٤م أيد «ماندڤيل - Mande- ville» (١٦٧٠م - ١٧٣٣م) فى كتابه «حكايات خيالية عن النحل (١٧١٤م) الرأى القائل بأن الحاجات الشخصية تحقق المنفعة العامة.

وكان Jérémie BenTham (١٧٤٨م - ١٨٣٣م) من أبرز المؤيدين لهذا الرأى وللمفهوم الذى يطابق النظام الرأسمالى بقانون الطبيعة. ولهذا فقد شبه الإنسان - فى سعيه لتحقيق السعادة - بالحيوان الذى يحيا لتحقيق صالحه الخاص فقط. وتخيل Bentham أن هناك نوعاً من علم الرياضيات يحقق السعادة، وهذا لا يتأتى إلا بوجود قاسم مشترك لقياس هذه السعادة يتوفر - وفقاً له - فى أسعار الأشياء التى تجلب علينا السعادة وتجنبنا التعاسة، والتى تحدد وفقاً للسوق.

فالمال إذن هو هذا القاسم المشترك والأداة التى يتم بها قياس هذه السعادة. ومنذ صدور كتابه «مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع - Intro duction ausc Prin cipes de la morale et de la legislation (١٧٨٩م) وحتى النتائج القانونية التى توصل إليها فى مؤلفه، (١٨٣٠م) - la rationaLité du Chati- ment وجه بنشام مجموعة أعماله الفلسفية نحو المبدأ الأساسى القائل بأن العدالة - فى ظل النظام التنافسى - تلزم المشرع بفرض عقوبات اقتصادية نسبية مقارنة بالجنحة المرتكبة.

وهكذا توصل عصر الكمية (الذى لا يهتم إلا بمقدار المكسب) إلى الأساس الذى يركز عليه. وهو العصر الذى أصبح فيه السوق هو المنظم وحده للعلاقات الإنسانية والعصر الذى حول الإنسان إلى منتج ومستهلك يعمل من

أجل مصلحته فقط. هذا الإنسان الذى أطلق عليه Marcuse فيما بعد بثلاثة قرون: «الإنسان ذو الهدف الأوحى».

ولقد لخص فكرته التى لا تفرق بين الإنسان والحيوان فى الصيغة التالية: «دفعت الطبيعة الإنسان لأن يصبح له سيدان فقط هما المتعة والألم».

وكان اللورد «شيلبورن - Shelburne» - أحد خلفاء «وولپول - Walpol» - الذى رأس الحكومة فى انجلترا عام ١٧٦٣م يعتبر بنشام هو «نيوتن العلوم الإنسانية».

وبمساعدة كل من شركة الهند وبنك «بارينج - Baring» رفض شيلبورن منح أى تنازل لإيرلندا وأمريكا المحررة من الاستعمار الإنجليزي. وكان توجهه الرئيسى فى السياسة هو الحرية المطلقة للتجارة. وانتهى فى تعامله مع أمريكا بمبدأ التبادل الحر.

ففى ٢٧ يناير ١٧٨٣م عندما طلبت الحكومة الإنجليزية من مجلس اللوردات التصديق على معاهدة باريس التى تضع نهاية لاستعمار أمريكا، رأى أنه من الممكن تدمير أمريكا الواعدة وإخضاعها مرة أخرى للإنجليز عن طريق اللعبة السهلة للتجارة الحرة. فقد صرح قائلاً: «إن التنافس هو أساس التبادل الحر... ويجب أن يكون هذا المبدأ هو هدفنا الوحيد على هذه الأرض... إن التوسع فى الصناعة ورأس المال والمشروعات الذى تشهده بلادنا أكثر من أى دولة تجارية فى العالم، يدفعنا لأن تكون كلمتنا الأخيرة هى: «فتح كل الأسواق».

تلك بالفعل هى نفس اللغة التى تعامل بها مؤسسو اتفاقية GATT ومنظمة التجارة العالمية، وهى الأهداف التى تسعى إلى تحقيق السيطرة على العالم.

ولقد طلب شيلبورن من آدم سميث (١٧٣٣م - ١٧٩٠م) تأليف كتاب انتهى منه عندما كان يشغل منصب مأمور جمارك فى إيدنبوره عام ١٧٧٦م وأسماه: «ثروة الأمم» ولا زال هذا المؤلف يعبر عن واقع الحال حتى الآن.

ذلك الرجل الذى أطلق عليه «رائد الاقتصاد السياسى»، ألف نظرية عن التنمية ظل كل منظرى التبادل الحر - خاصة فى أمريكا فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما احتلت مكانة إنجلترا فى السيطرة الاقتصادية على العالم - يوصون بتطبيقها.

فالمصلحة الخاصة إذن هى محرك الاقتصاد. وفى الجزء الرابع من مؤلف «ثروة الأمم» عبّر آدم سميث عن الفكرة الرئيسية للنظام الذى يؤمن به قائلاً: «عندما يسعى كل منا لتوجيه صناعته كى تحقق أكبر قدر ممكن من الإنتاج، فهو يسعى بذلك إلى تحقيق مصلحته الخاصة. وهكذا وبطريقة غير مباشرة يسعى إلى تحقيق هدف لم يكن يقصده. فعن طريق تحقيق المنفعة الشخصية يحقق كل منا مصلحة المجتمع أكثر مما كان يستطيع تحقيقها لو كان يعتزم ذلك».

وبالتالى فإن التدخل المتعمد من جانب الدولة قد يضر بالمصلحة العامة، ويجب أن يقلص إلى أدنى حد ممكن.

إن سياسة السيطرة على المستعمرات القائمة على القوة العسكرية تثقل على مصروفات الدولة، لكن مبدأ التجارة الحرة كفيل بإصلاح الأمور، وأبرز مثال على ذلك هو التفوق الإنجليزى الذى لا يختلف عليه أحد.

ربما كان شيلبورن راضياً عن نتائج توصياته. غير أن بنثام رأى أن تحررية آدم سميث غير كافية. فعبر عن رأيه فى عمل بعنوان «الدفاع عن الفائدة الربوية» أخذ فيه على آدم سميث أنه لم يذهب فى نظريته إلى أبعد من ذلك. فقد كان لزاماً عليه أن يقول - وبطريقة أكثر وضوحاً - إن تحديد نسبة الفائدة يقضى على المبادرة والحرية.

ولقد استقبل آدم سميث هذا النقد بصدر رحب، ورد على بنثام قائلاً: «إن مؤلفك هو مؤلف رجل أرفع منزلة».

لقد كانت تحررية بنثام فى الواقع أكثر جذرية وأكثر فاعلية. فآدم سميث لم

يذكر من بين مهام الدولة (بالإضافة إلى الجيش والبحرية والشئون الإدارية والأشغال العامة) المساعدة الواجب تقديمها للعاطلين والمستبعدين. أما بنثام فقد عالج هذه الثغرة في مؤلفه «Panopticon» (١٨٠٢م) عندما تصور وجود معسكرات حقيقية للأشغال الشاقة تضم المجرمين والمعوزين وأطفالهم، واقترح كتابة الآتى على مداخلها «لو أنكم كنتم تعملون عندما كنتم أحراراً، لما وجب علينا اقتيادكم هنا كعبيد». مما يذكرنا بما كتبه النازيون على بوابة Auschwitz «العمل هو الحرية». بعد وفاة بنثام عام ١٨٣٢م، تم تخييط جثته ولا تزال المومياء موجودة بجامعة لندن.

ولقد ألهمت أفكاره كلاً من جيمس ميل James Mill وابنه «جون ستيوارت ميل - John Stuart Mill». فقد لخص ستيوارت ميل فى حياته وفى أعماله كل تطورات أيديولوجية الأوليجارشية (حكم القلة: حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة نافذة) والاستعمار الذى يمثل هو نهاية مرحلته... ففى عام ١٨٢٢م عندما كان يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، عرض منهج بنثام الذى تشبع به، كما قدم فى نهاية حياته عرضاً شاملاً عن أوجست كونت وفلسفته الوضعية.

فى الفترة الواقعة بين مرحلتى فلسفته وبين ظهور أعماله عن «مبادئ الاقتصاد السياسى» (١٨٥٤م) وعن الحرية (١٨٥٤م) وعن النفعية (١٨٦١م) وعن منطق «الاستقراى والاستنباطى» - وهو لب أعماله - كرس نشاطه بالكامل للعمل فى «شركة الهند» - إذ التحق بالعمل بها عام ١٨٣٦م فى سن الثلاثين وظل بها حتى تصفيتها عام ١٨٥٨م.

مؤيداً لأيديولوجية «مالتوس - Malthus» (وهو منظر آخر لشركة الهند) ظل ستيوارت ميل هو المرجع الأساسى لكل مروج وداعية للاستعمار، وهى منزلة يستحقها بالفعل لكفاءته المهنية. ونظراً لشغله منصب مدير لشركة الهند، انخرط فى حرب الأفيون ضد الصين منذ عام ١٨٤٦م، وفى قمع ثورة المحاربين الهنود Cipayes عام ١٨٥٨م.

وكان مالتوس (١٧٤٦-١٨٣٤م) يعمل مدرساً لمادة التاريخ والاقتصاد السياسى فى المدرسة التابعة لشركة الهند، عندما كتب مؤلفه «دراسات عن السكان» أطلق عليها قانون السكان، وذكر فيها أن النمو السكانى يتم وفق تطور أسى فى حين أن الإنتاج المعيشى ينمو وفق تطور حسابى .

ولم يتم إثبات هذا القانون البتة .

وهكذا أصبح مالتوس - منظر شركة الهند ومبدأ التحررية الإنجليزية الذى أعفى من قانونه الجرائم الاستعمارية- هو السلف الشرعى لأولئك الذين ربطوا بين الزيادة السكانية والبطالة، والحريصين اليوم على تبرئة المسئول الحقيقى عن جريمة الجوع.

والقوانين التى اكتشفها مالتوس ليست قوانين ثابتة، ولكنها تنطبق على الرأسمالية والاستعمار والتحرر الاقتصادى، أى التنافس الشرس ومبدأ «تنافس الجميع وعلى كل شىء»، دون أية حدود قانونية أو أخلاقية، وهو تنافس يقضى على مليارات الحيوانات والنباتات وملايين البؤساء وآلاف المشروعات الصغيرة.

ولقد استلهم داروين نظرية الاختيار الطبيعى من مالتوس . فقد لاح له حل مشكلته بعد أن قرأ فى أكتوبر ١٨٣٦م مؤلف مالتوس بعنوان «رسالة فى مبادئ السكان - «Essay on the Principle of Population» .

إذ قام باستنتاج كل الآثار السياسية والعنصرية لمنهج مالتوس، وكتب لـ «جراهام - W. Graham» فى الثالث من يوليو ١٨٨١م قائلاً: «إن الأجناس الدنيا ستقضى عليها قريباً الأجناس التى حققت مستوى أعلى من الحضارة»، وظل هذا رأى العنصرى - وهو أساس كل نظام استعمارى - سائداً منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

ب- من مسلمة ديكارت وحتى عصر الحاسب الآلى

تتعلق المسلمة الثانية التى تقوم عليها الحضارة الغربية منذ النهضة بعلاقات الإنسان بالطبيعة، وهو ما أطلق عليها «مسلمة ديكارت» .

وقد حدد ديكارت هدفه من خلال مؤلفه «Discours de la méthode» (١٦٣٧م) فى الصيغة التالية «سوف نصبح أسياد وملاك الوجود».

وديكارت كان معاصراً لهوبس وتبادل معه رسائل جدلية. إذ كان يعارض مذهبه التجريبي، ولكنه انطلق من نفس المفهوم المتعالى والأناى عندما شرع فى تصور علاقات جديدة للإنسان مع الوجود، دون التخلى عن مبدأ ثنوية الكون أساس الفلسفة الإنسانية.

وكى يكمل مسيرته، كان من الضرورى أن يعن التفكير فى اليقين الأول الذى انبثق منه مذهبه بالكامل: «هل أشك فى كل شىء، إنه أمر مؤكد: أنا أفكر إذن أنا موجود».

«أنا أفكر إذن أنا موجود» قد يكون من الصعب قول مثل تلك الحماقات فى قليل من الكلمات، فخمس كلمات تخفى أربع مسلمات.

حتى روبنسون وهو الرجل الضائع المنزل فى جزيرة، لم يكن ليرواده ذلك الوهم الساذج فى كلمة «أنا».

لم تكن كلمة «أنا» فى البداية هى «الأنا». على العكس من ذلك فإن «أنا» تميزنى شيئاً فشيئاً وبصعوبة عن الشمولية الغامضة للجماذ والأحياء.

إنها انتصار لصدر طفولتى: اللحظة التى أثبت فيها كيانى كفرد يتميز عن الآخرين وينفصل عنهم إن لم يكن يواجههم.

كنت أعرف أن كلمة «أنا» هى ماهية يكمن جوهرها أو طبيعتها فى التفكير.

وينشق هذا المرض من الزمن البعيد من عهد سقراط وأفلاطون. فكل ما لا نستطيع ترجمته إلى مفاهيم لا أساس له فى الوجود. ولقد بلغ ديكارت ذروة الأسى عندما تساءل عن مكانة الحب والإبداع الجمالى والعمل نفسه (ولكن العمل اللاألى). فلنحاول إذن استخلاص فكرة جمالية من أفكار ديكارت! ولتتعلم منه ما هو الحب!.

كيف خرج ديكارت من تأملاته الانعزالية؟

لقد اعتقد أولاً أنه لا بد من وجود جسد لهذه الروح المفكرة. فتفكيرنا الغريب ينمو فى هذا الجسد بالافتراضات اللاعقلانية. فالغدة الصنوبرية هى الجسر الذى يمكننا من عبور الهاوية بين الروح المفكرة والجسد. وهذه القطعة الصغيرة من اللحم هى المعبر غير المنتظر الذى يعود بنا مرة أخرى إلى العالم.

وحتى لا يتحول الوجود - الذى يتعد بشدة عن هذا الفكر الانعزالي - إلى وهم، كان من الضروري وجود برهان على وجوده الحقيقى. فى هذا الصدد يذكرنا ديكارت ببرهان أقل مفاجأة من الغدة الصنوبرية: فالإله هو الضامن الحقيقى لهذا العالم الخارجى. ولكن أى إله؟ بالتأكيد هو جوهر هذه الحقيقة الأكيدة حتى الآن عند ديكارت، أى التفكير. فهو فى غنى إذن عن هذه الغدة الصنوبرية كى ينتقل من مرحلة التفكير إلى الوجود. وقد كان مرجعه فى هذا الشأن منهج المدرسة التقليدية Solastique (نسبة إلى سكولا وهى المدارس الفلسفية الشهيرة فى العصور الوسطى حيث سادت فلسفة أرسطو فى التدريس) منذ عهد «القديس أنسلم - Saint Anselme» (١٠٣٣م - ١١٠٩م) الذى استنتج وجود الإله من الفكرة التى نتصورها عنه، إذ إن لدينا فكرة عن ذاته الكاملة: «إن الإله هو هذا القدر الذى لا يمكن التفكير فى شئ أكبر منه، أو هذا الكمال المطلق الذى يستلزم خلق الوجود، فالذات الكاملة موجودة إذن». والحيوان ما هو إلا آلة (أى خالى من كل روح فى فلسفة ديكارت) والإنسان لم يفلت من هذه الحقيقة إلا بمعجزة ربانية، وذلك بفضل الغدة الصنوبرية التى تصل جسده بروحه. وإذا ما لجأنا إلى مزيد من ترابط الأفكار، يكفيننا التجرد من هذه الصلة الغريبة حتى نتقل فى القرن التالى من الحيوان الآلة عند ديكارت إلى الإنسان الآلة عند «لامتري Lamettrie».

ولقد جعلنا ديكارت أسياد وملاك الوجود نظراً لاعتقاده فى مفهومي الشمولية (الذى اكتشفه علم الهندسة التحليلية الذى اخترعه ديكارت)

والاستمرارية (وباعثه الأول هو وجود الآلة). وقد كان ديكارت فى هذا المجال رائد الحضارة التقنية التى تقصر وظيفة العقل على الوظيفة الآلية كوسيلة للسيطرة والثراء.

من هذا المنطلق، تم استبعاد أى معنى وأية غاية للوجود. ولقد اشتق ديكارت منطقته هذا من كلمتى السر: «الفكر الفريد» و«التسييس السليم». وعندما لجأ ديكارت إلى ستوكهولم، سألته الملكة: كيف يستطيع الإنسان أن يضى على حياته معنى وهدفًا؟ عجز عن الإجابة واكتفى - كما يقول «ليفى شتراوس - Levi Strauss» - بترديد عدد أحرف كلمة رواقية (نسبة إلى الرواق الذى كان يجتمع فيه أتباع زينون، وهى فلسفة تقول بأن كل شىء فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى ويقبل أفعال القدر طوعًا) أو لفظ أبيقورية (مذهب الانغماس فى اللذات) حتى يتسنى له الإسناد إلى النظرية الأساسية للديكارتية التى تؤمن بالسيطرة التقنية على العالم، والتى دفعت «ميشيل سير - Michel Serres» لتأليف «الحديث عن المنهج هو معاهدة لبدء الحرب»، وهو على أى حال كتاب موجز عن القوة التقنية، ولا يتناول حتى مسألة الأهداف. تلك الأهداف التى يفصح عنها الفارس المرتزق «René Descartes» عندما وضع نفسه (فى هذه الفترة من الحروب الدموية) تحت لواء كل من البروتستانتى «موريس دى نيسو - Maurice De Nassau» الذى كان يقاتل إسبانيا من أجل استقلال هولندا عام ١٦١٨م، والكاثولىكى «ماكسيميليان دى بيرر - Maximilien De Bairère» الذى كان يواز «هاسبورج - Hasbourg» للقضاء على استغلال المتمردين فى معركة الجبل الأبيض بالقرب من براج يوم ٨ نوفمبر ١٦٢٠م لتبدأ مرحلة الظلمات لشعب بأكمله.

وقد خدمت عقلية المرتزقة والمغامرين الإسبان (الذين غزوا أمريكا) بطريقة مذهلة الحضارة التجارية والاستعمارية التى كانت آنذاك على وشك الازدهار. وأصبحت الفلسفة المماثلة لهذه العقلية - أى التى تقصر وظائف العقل على

الوظيفة الآلية - هي المعبود المبجل لنظام اجتماعى مزدهر ومتقدم لثلاثة قرون متواصلة، وحتى منتصف القرن العشرين، بعد أن صاغ جاستون باشلارد «Gaston Bachelard» مفهوماً جديداً مغايراً للمنهج العلمى الديكارتى، وذلك بعد اكتشاف فيزياء الكم (نسبة إلى نظرية الكم وهو أصغر مقدار من الطاقة يمكن أن يوجد مستقلاً)، وقانون النسبية.

وفلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر - التى عرفت فى فرنسا أوج ازدهارها - ما هى إلا فلسفة ديكارتية بعد تنقيحها من نقاط ضعفها اللاهوتية والمتعلقة بنظرية الغدة الصنوبرية، فأدت بالتالى إلى ظهور المذهب الآلى المادى (مذهب فلسفى يعتبر المادة الواقع الوحيد، وينكر وجود الروح والعالم الآخر والله) المتمثل فى الطبيب «لامتري - Lamettrie» (١٧٩١م - ١٧٨١م) فى كتابه «الرجل الآلة» (١٧٤٨م) وهو النتيجة المنطقية للمفهوم الديكارتى عن الحيوان الآلة.

وعلى الرغم من معتقدها الديكارتى، فقد لعبت هذه المادية فى القرن الثامن عشر دوراً تاريخياً إيجابياً. فقد كانت هى الأساس الأيديولوجى لمكافحة الإقطاع، التى أقرها مذهب يقوم على تبرير الحق المقدس للملوك والامتيازات العرقية. بل إن «بوسيه - Bossuet» نفسه أيد فى القرن السابق الملكية المطلقة انطلاقاً من منهج مستوحى من الكتاب المقدس.

وهذا الدور الثورى للمادية الفرنسية لم يكن هو وحده المعبر عن أشكال المادية. فقد قامت المادية الإنجليزية لـ «هوبس» هى الأخرى بتبرير الملكية المطلقة فى مؤلفه «Leviathan» فى حين أعلن كارل ماركس أنه وريث مذهب المثالية الألمانية (مذهب فلسفى ينكر المادة ويسلب الحقيقة عن كل ما لم يكن تصوراً ذهنياً أو فكرياً ويطلق عليه أحياناً اسم اللامادية).

وهكذا نستطيع تفسير منطق ماركس تفسيراً سليماً، وهو الذى كان يعتبر نفسه «أحد المعارضين لمنهج هيغل» عندما صرح أنه قلب رأساً على عقب

منهج هيكل الجدلى (وهو المبدأ الذى يبرز تماسك المتناقضات ووحدتها). وهذا الموقف المتغير لا يعنى تأييد ماركس للمادة العقائدية السابقة، ولكنه يعنى الانتقال من فلسفة الوجود إلى فلسفة العقل.

ولقد أظهرت الثورة الفرنسية انقسامًا فى تاريخ الفلسفة كما أظهرت انقسامًا فى التاريخ السياسى لأوروبا.

وفى هذه المرحلة الحاسمة من التغير، ظهرت أعمال «كوندورسيه-Condorcet» (١٧٤٣م - ١٧٩٤م) وهو أول من صاغ بطريقة منهجية أسطورة التقدم بنفس الطريقة التى ألحت على العقول منذ قرنين من الزمان، على الرغم من إنكار التاريخ الواقعى لها، وهى الأسطورة التى تلت أسطورة العناية الإلهية التى سادت حتى القرن السادس عشر. وتكررت واستمرت هذه الأسطورة وأخذت أشكالاً متنوعة فى القرن التاسع عشر مع أوجست كونت «وقانونه حول الحالات الثلاث»، وفى القرن العشرين مع مفاهيم النمو أو التنمية الكمية التى يتم حسابها وفقاً لإجمالى الناتج القومى.

وقد كان كوندورسيه عالم رياضيات، وكان يتمتع بعقلية موسوعية، أى شاملة، ثم أصبح سكرتيراً دائماً لأكاديمية العلوم عام ١٧٧٣م.

وكان أداء الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر قد أقنعه أن تطور التقنيات والعلوم هو تطور لا نهائى، وأن هذه السيطرة اللانهائية للإنسان على الكون يمكن أن تحقق رفاهية الجميع عن طريق طريق النماء اللامحدود للثروات.

ولم يكن كوندورسيه يشارك آدم سميث فى تفاؤله المطمئن، الذى قنع بفكرة زيادة ثروة الشعوب دون الاكتراث بتوزيعها. ففى البيان المالى الذى عرضه يوم ١٢ مارس ١٧٩٢م على المجلس التشريعى الذى كان يرأسه قال: «إن كل مجتمع، كبير وغنى، يضم عدداً كبيراً من الفقراء هو مجتمع بائس وفاسد». غير أن هذه الأزمة المتعلقة بتطوير النظام لم تكن - من وجهة نظره - سوى مرحلة

مؤقتة، ولكى نعالج هذا الخلل «علينا إقامة مؤسسات تساعد وتعين الشريحة الفقيرة من السكان».

وفى مؤلفه عن التصور التاريخى لتقدم العقل البشرى - Tableau hisorique - des progrès de l'esprit humain، الذى نشره عام ١٧٩٤م - وهو نفس العام الذى انتحر فيه - أثبت أن التطور اللامحدود للاختراعات العلمية والتقنية المرتبط بالثقافة الشاملة، قد يؤدى إلى تقدم لا نهائى فى تحقيق السعادة البشرية. ويتصف هذا المنهج بالسخاء، إذ يكفل السعادة للجميع، إلا أن الأفكار الرأسمالية الفاسدة أنكرته؛ لأنها تهدف إلى تحقيق المزيد من الثروات والمزيد من البؤساء والمبؤذين.

والاعتراض الثانى - وهو أكثر حيوية فيما يتعلق بأسطورة التقدم - ينبثق من اختيار معايير السعادة نفسها. والأمر يتعلق هنا بمعنى ومغزى الحياة. وسوف نتناول هذه المعايير عن طريق دراسة المسلمات الثلاث (المقدسة) للحضارة الغربية بدءاً من «فاوست - Faust» وحتى عالم اللامعنى. وسوف نكتفى الآن بعرض المنهج الديكارتى القائل بأننا أسياد وملاك الوجود.

ولقد مكنتنا العلوم والتقنيات الحديثة التى تدمر هذا الوجود من تفسير هذا المنهج. فقبله هيروشيما أبادت فى لحظة واحدة ٨٠٠٠٠ نسمة، وهو ما يعد «تقدماً تقنياً» لا جدال عليه، يفوق جنكيز خان الذى شيد هرمًا يبلغ ارتفاعه ١٠٠٠ جمجمة فى سبعة أيام عندما استولى على أصفهان.

وتمتلك القوى النووية فى العصر الحالى مخزونًا يوازي أكثر من مليون قنبلة مماثلة لقنبلة هيروشيما، أى قدرة تقنية تكفى لتدمير ٧٠ مليار نسمة، أى ما يوازي اثنتى أو خمس عشرة مرة تعداد سكان الأرض، فهى بالتالى قادرة على محو كل أثر للحياة على وجه الأرض.

وهذا هو مثال واحد فقط . فالانتحار الكوكبي البطيء بدا أكيداً . إن تدمير طبقة الأوزون الناجم عن التلوث الصناعى يهددنا - خلال الثلاثين عاماً القادمة - بارتفاع درجات حرارة الغلاف الجوى عدة درجات، وبذوبان الثلوج فى القطبين، مما يؤدي إلى إغراق المدن الكبرى الساحلية، حتى لو تمكنا من وضع حد لجنون استغلال المناطق القطبية الذى يسرع برفع درجات الحرارة وتدمير هذا المنظم الثلجى .

ولا يقف الدور المدمر للسوق عند هذا الحد . فاعتبارات الاقتصاد الرشيد وحدها، والمردودية قصيرة الأجل، دفعت سوق البناء والشيد إلى التعدى على المساحات الفضاء فى المدن والضواحي نتيجة للنمو السرطاني للعقارات العشوائية، كذلك الحرائق المندلعة التى تحول المساحات الخضراء إلى أراضٍ للبناء أو (تحولها لمشروعات أكثر ربحية) تغطي سنوياً على مساحات الغابات فى النمسا .

وفى المنطقة الاستوائية - الأمازون على سبيل المثال - أدى جشع المستوطنين الناجم عن تربية المواشى إلى تدمير ٢٤ هكتاراً يومياً فى المنطقة، مما يعرض الجهاز التنفسى لخمسة مليار نسمة للخطر . كما يؤدي التصحر - فى خلال الثلاثين عاماً القادمة - إلى هجرة أكثر من مليار نسمة .

تلك هى بعض الأمثلة عن التقدم الذى تحقق بعد السيطرة على الطبيعة وامتلاكها .

ج- من مسلمة فاوست إلى عالم اللامعنى

بالإضافة إلى فاوست الأولى، قام تاريخ الغرب على مسلمة «مارلو - Marlowe» التى يقول فيها «تحول أيها الإنسان بفضل عقلك القوى إلى إله» . هذا فى الوقت الذى اعتقد فيه عمالقة الفكر مثل جوته وكانط وفيخت وهيغل أن الإنسان يستطيع أن يتولى تسيير العالم بدلاً من الله .

أ- آخر فرسان الفكر: فيخت وهيغل

قارن «فيخت - Fichte» الثورة الكوبرنيسية لكانط، التى يقوم عليها عملياً ونظرياً الاستقلال السيادة للإنسان بالثورة الفرنسية، التى ابتكرت قانوناً وعالمًا جديدين انطلاقاً من مبدأ الاستقلال السيادة للإنسان ومن عقله.

ولقد عرض خدماته على فرنسا عندما اقترح عليها فلسفته كأساس نظرى للثورة. «إن منهجى هو أول منهج للحرية. وكما حررت هذه الأمة (فرنسا) البشرية من قيودها المادية، فإن منهجى سوف يحررها من عبودية الواقع المطلق ومن المؤثرات الخارجية؛ لأن مبادئه الأساسية تجعل من الإنسان كائنًا مستقلاً. لقد نشأ «المذهب العلمى» فى الأعوام التى دأبت فيها الأمة الفرنسية - بقوة الإرادة - على الانتصار للحرية السياسية. ولقد اعتنقت منهجى هذا بعد معركة وثيقة مع ذاتى وضد كل الأحكام المسبقة المترسخة فى نفسى. ولقد أدى هذا الانتصار للحرية إلى نشأة «المذهب العلمى»، إننى أدين لبسالة الثورة الفرنسية بالنجاح الذى حققته، أدين لها لشحنى بالطاقة اللازمة لتفهم هذه الأفكار. فعندما كنت أكتب مؤلفاً عن الثورة، كانت تنمو فى داخلى الدلائل الأولى والمشاعر الأساسية لمنهجى، كما لو أنها كانت نوعاً من المكافأة لى على عملى. فهذا المنهج يدين إذن بدرجة أو بأخرى إلى الثورة الفرنسية».

وتاريخياً، يمكننا القول بأن فلسفة فيخت كانت هى مصدر الفلسفة الحديثة «للفعل» التى قال عنها ماركس «إنها النظرية الألمانية للثورة الفرنسية».

ولقد استمد ماركس فلسفته عن الفعل فى بادئ الأمر من تلك الفلسفة، وأضفى عليها الصيغة الشهيرة فى فرضيته الحادية عشر عن «فورباخ - Feuerbach»، الصادرة عام ١٨٤٤م، والقائلة بأن «كل ما قام به الفلاسفة حتى الآن هو تفسير العالم، وعلينا الآن تغيير هذا العالم».

ترتكز الفكرة الأساسية لمذهب فيخت على الإنسان المبدع والإنسان الذى تنم

أفعاله عن أحواله . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتعارض جذرياً فلسفة «الفعل» مع فلسفة «الوجود» . فالوجود بالنسبة له هو العمل وهو الإبداع .

ولأن طبيعة الوجود هى العمل والإبداع ، فهناك دائماً ماضٍ وحاضر جديد .

وتختلف «الأنا» التى انطلق منها فيخت أو تلك التى انتهى عندها عن «الأنا» فى مذهب الفردية الأناني ؛ لأنها ليست إحدى المعطيات ولكنها فعل من الأفعال ، أى أنها تمثل الفرد الذى يتصرف ويتمتع - فرضياً - بملكة الإدراك .

و«الأنا» عند فيخت - سواء فى بدايتها أو فى نهايتها - هى أبعد من أن تنعزل فى تفرداها الحساس وفى رضائها عن ذاتها ، وإنما هى ضرورة لتحقيق الشمولية . فهى تصرف يهدف إلى المشاركة فى صنع التاريخ العالمى ، وهذه «الأنا» تتعايش - فرضياً - مع الإنسانية جمعاء . وهى مضمون شامل ليس فقط لثقافتها الماضية ، ولكن للحال الذى ستصبح عليه فى عموم تاريخها . وهى - كما يقول فيخت - «اندماج بين الأفكار الكاملة المطلقة» . إن ما يميز مفهوم «الأنا» عند فيخت هو تفوقها الدائم على ذاتها . فهى لا تكتفى بتحديد حدودها ولكنها تتجاوز تلك الحدود كما لو أن العالم الأبدى ينادى عليها ، ذلك أن حاضرها لا يتحدد إلا وفقاً لمستقبلها الوليد . «فالأنا» فى حالة تكوين دائم . أى أن حالى الماضى وحالى الحاضر يتحقق مغزاهما التام وفقاً لحالى المستقبل . فالوجود إذن ليس هبة وعطاءً ولكنه فعل وإبداع ، وهو دائماً فى طور الإعداد . ذلك هو المبدأ الأول لفلسفة «الفعل» .

وعلى الرغم من إيمانه بمثالية كانط واستخدامه لمفرداته ، إلا أن الفلسفة الحققة عند فيخت هى الالتزام التام للإنسان ببذل جهد جماعى كى يصنع التاريخ ويغير الوجود ويبنى المجتمع .

فالإنسان المنعزل - كما يقول فيخت - يرفض قدره ولا يكثر بالتطور الأخلاقى . ولتحدث من الناحية الأخلاقية : إن التفكير المقتصر على الذات لا

يكثر التفكير في ذاته نفسها؛ لأن الغاية المطلقة للفرد لا تكمن في هذه الذات ولكن في ذات الإنسانية جمعاء (Fichte.sittenlere. 17.S18).

ويتطابق المسار الفلسفى لهيجل مع مسار نظيره فيخت. فقد عاصر هو الآخر انهيار عالم ومولد عالم آخر بفشله السياسى. فقد كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً عند سقوط الباستيل فى الرابع والعشرين من شهر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية الفرنسية) الموافق التاسع والعشرين من شهر برومر (شهر الضباب أو الشهر الثانى فى تقويم الثورة الفرنسية). وقد كان على وشك الانتهاء من مؤلفه فينومولوجيا العقل، عندما عسكرت القوات الفرنسية الغازية عام ١٨٠٧م فى منطقة «أينا - Iéna» أمام منزله وعندما أقرت معاهدة سلام «تيلست - Tilsit» سقوط بلده بروسيا.

واستغرق بعد ذلك تأليف كتابه «علم المنطق - Sciende de la Logique» من عام ١٨١٢ وحتى ١٨١٦م وذلك فى الفترة التى بدأت فيها الانتفاضة القومية لبلاده ضد إمبراطورية نابوليون وانهارت والترلو عام ١٨١٣م.

وفى عام ١٨٢١م وهو العام الذى صدر فيه مؤلفه «فلسفة الحق - Philoso-Phie du Droit» ثم عقد مؤتمر التحالف المقدس فى «لايباخ - Lay Bach».

وقد جاهر برأيه عن الدروس المستفادة من «فلسفة التاريخ - Les leçons sur la Philosophie de l'Histoire» فى الفترة من عام ١٨٢٢م وحتى عام ١٨٣١م وسط التغيرات التاريخية العظيمة التى حدثت آنذاك، وهى الحقبة التى أعلنت فيها اليونان عام ١٨٢٢م استقلالها عن «إبيدور - Epidaure»، وسقط فيها عرش إسبانيا، وقضت أمريكا اللاتينية على الاستعمار الإيبانى، واندلعت ثورة «Decabristes» فى سان بطرسبورج عام ١٨٢٥م. ولم يتم الوعى التام بمؤلفات هيجل العظيمة إلا مع بزوغ دلائل انهيار هذا العالم. ففى هذه المرحلة فقط بدأت محاولات هيجل لعقد مقارنة شاملة بين الشمولية والفردية، وبين

اللوجوس اليونانى (الفصل بين الخالق والكون فى الأفلاطونية الحديثة) وحقبة الذاتية المسيحية.

ولقد كان ماركس على حق عندما قال إن هيجل كان يمثل نهاية حقبة الفلسفة أو على الأقل فلسفة الوجود.

وبعد هذا العرض الشامل والعظيم لـ «هيجل» لم يترك كل من ادعى بعد ذلك الاستمرار فى هذا المشوار أى أثر فى التاريخ الفلسفى. ذلك أن كلاً منهم تناول حقبة فلسفية لا تمثل سوى جزء من منهج هيجل. ونستطيع أن نطلق عليهم الوصف الذى أطلقه «روى بلاس - Ruy Blas» على أتباع «شارل كنت - Charles Quint» عندما قال:

«إنهم مجموعة من الأقزام ترتدى صديريات وتحتفى بمعطفه الملكى».

عالم بلا بشر؛ أوجست كونت والفلسفة الوضعية^(١)

صدق «أوجست كونت - August Conte» على نهاية عهد الفلسفة التى كانت تدعو إلى البحث عن مغزى وغايات التفكير والعمل عند الإنسان.

والأمر الذى يسمح لنا بتفهم الوحدة التى تتمتع بها مؤلفاته، هو اهتمامه الأساسى المنصب على أن الثورة الفرنسية وضعت حدًا للنظام الإقطاعى والثيوقراطية (حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين) وهو ما يعد - فى نظره - أمراً تقدمياً. كما أنها أقامت نظاماً جديداً يركز على العلم والتقنية والصناعة ويضع نهاية للمرحلة السابقة من التاريخ. ولا يجب التشكيك فى هذا النظام بقيام ثورة جديدة كثورة عام ١٨٤٨م، وهو التاريخ الذى أطلق فيه أوجست كونت شعار النظام والتقدم.

ولقد مهدت الثورة الفرنسية لعهد «العقلية الصناعية» وهو قوام أى تقدم، أما مهمة النظام فتتحدد فى الحفاظ على هذا التقدم. وعندما تحدث أوجست

(١) فلسفة تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع البينية، مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة.

كونت عن المحافظين لم يتردد فى ذكر قيصر روسيا وكبير الوزراء العثماني
كمثل للوقوف أمام كل تطور والإبقاء على النظام القائم.

ولقد نشر عام ١٨٢٢م مؤلفه «خطة الأعمال العلمية اللازمة لإعادة تنظيم
المجتمع - Plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser
la société» الذى تشتمل مبادئه على منهجه المستقبلى الذى عرضه فى ثلاثة
مؤلفات رئيسية.

ولقد تحورت كتبه الثلاثة بالتوالى «مسار الفلسفة الوضعية» (١٩٣٠م-
١٩٤٨م) و«النظام السياسى الوضعى» (١٨٥١م- ١٨٥٤م) و«العقيدة المسيحية
الوضعية» (١٨٥٢م) على العلم والسياسة والدين الجديد القائم على المحورين
الأولين.

أما العلم فهو علم عصره، أى الآلى والحتمى (وهو مبدأ يقول بأن أفعال
المرء والمتغيرات الاجتماعية هما نتيجة عوامل لا سلطة للمرء عليها)، العلم
الذى عرفه «لاپلاس - Laplace» (١٧٩٩ - ١٨٢٧م) أحد مؤسسى مدرسة
الپوليتكنيك (التي جسد أوجست كونت فكرها لفترة طويلة) فى كتابه «عرض
للنظام العالمى - L'exposition du systeme du monde» (١٧٩٦م) الذى أعاد
طباعته عام ١٨٢٤م. وهو المؤلف الذى يضم تحليلاً شاملاً لمجمل المعارف
الفيزيائية التى يطغى عليها التعريف القوى للحتمية الآلية والقائل «بضرورة
تبصر الوضع الحالى للكون على أنه نتيجة طبيعية للوضع السابق، وعلى أنه
الدافع لتحقيق الوضع المستقبلى». وهو الفكر الذى تعرف - فى فترة من
الفترات - على كل القوى التى تحرك الوجود والكائنات التى تعيش فيه. غير
أن هذا التعريف كان شاملاً كى يتمكن من إخضاع هذه المعطيات للتحليل، إذ
يجمع فى صيغة واحدة بين حركات أكبر أجسام الكون وأصغر جزئياته. وهو
لا يقلل الشك أما المستقبل فهو كالماضى موجود ونصب عينيه.

وهكذا فقد صاغ أوجست كونت قانوناً شاملاً، وذلك باستبعاد كل عنصر

فى الطبعفة قابل للزوال . كما قام بتطقق نفس هذا المنهج ، أى الحتمفة الآلفة - على الإنسان والعلمو المتعلقة به مثل الاقتصاد والفساة وعلم الاجتماع (الذى أطلق علفه أفضاً علم الطبعفة الاجتماعية) - بعد أن استعبد - من حفث المبدأ - كل مسألة تتعلق بالإءراك .

ولهذا فقد قام فى مؤلفه حول «قانون الحالات الثلاث» باستبعاد الحالة اللاهوتفة ؛ لأنها تفر الاستفهام «بلماءا» ولا تكفى «بكفف» . وامتد هذا العهد اللاهوتى - وفقاً له - من بدء الخلفة وحتى القرن الثانى عشر ، متجاهلاً تماماً كل أنواع الحكم غير الغربفة .

والعصر المفافزققى فعتبر مرحلة انتقالفة وانعكاساً للرؤفة اللاهوتفة . والعصر الوضعى هو العصر الذى اكفى فى الإنسان بملاحظة ما هو كائن ووضع القوانين الخاصة به : «فقد تم استبدال مفهوم الأخذ بالأسباب بحتمفة القوانين» .

لا مكان إذن - فى هذه الفلسفة التاريخفة - إلا للتعمفم النوعى للحاضر كى فتم التنبؤ بالمستقبل . وهكذا أصبح أوجست كونت رائء هذا العلم الشمولى المتعلق بالمستقبل التقنى (فهم بالشفا الاقتصادى من ففر أن فولى العوامل الإنسانفة أهففة كاففة) والعلم الآلى الذى فعتقد أن الحاسب الآلى فسطفع أن فجب على كل التساؤلات ، فف فقط المتعلقة بالوسائل ولكن بالفافا ، وذلك منذ اعتبر «نوربر ففنر - Norbert Wiener» مخترع علم التوففه (علم فففح لإنسان أو آلة أوماففكفة أن فوجها ، وأن فبلغا هءفاً معفناً) أن المجتمعات البشرفة معقدة جداً كى فسفرها الإنسان ، ولهذا فجب الاسفعانة بالآلة كى فنجز بدلاً منه ما كان علفه فنجازه ، مع استبعاد أى قرار فمكن أن ففخذه : إن محاولة فففر مفرى الفارفخ قد فصبح أمراً مخالفاً للصواب .

وفقصره المعرفة على المسلمة ، قصر أوجست كونت العمل على النظام القائم ، فى ففن أن الأمر ففعلق على العكس من ذلك بمحاولة ضبطه .

وهذا المبدأ هو أساس المنهج المحافظ (نزوع إلى إبقاء ما هو قائم ومقاومة التجديد) كما لاحظته جيداً «شارل مورا- Charles Maurras» لا سيما أن هذا الإدراك العقائدى سوف يقصره أوجست كونت على الدين.

ففى مؤلفه عن العقيدة المسيحية الوضعية، اختلق نوعاً من الكاثوليكية بغير إله، وذلك بإدراجه نظام التدرج الدينى وطقوس وعقائد الكنيسة الكاثوليكية فى عهده إلى كنيسته التى تؤمن بالوضعية.

وهكذا استطاع أوجست كونت أن يحتفل فى آن واحد بقمة النجاح الذى حققته فلسفة الوجود وبنهايتها.

وهكذا بدأت عملية نهب ٩٠٪ من الثروات المادية فى العالم التى انتهجها أولئك الذين يعيشون من أجل الثراء والقوة.

وهذا هو ما نطلق عليه فى الغرب مصطلح «العصور الحديثة»، والمؤرخون مكلفون بنقل أيديولوجيته إلى الأطفال، ووسائل الإعلام مكلفة بنقلها إلى البالغين.

فهرس الموضوعات

٥	- تقديم
٧	- تمهيد
١٧	- مقدمة
٤٧	- الفصل الأول: الغرب.. غرب
٥٠	أسطورة الاستثنائية العبرية
٥٨	الزواج من الآخر وعقد معاهدات معه
٦٠	ميلاد الوحداية فى الهلال الخصيب ومصر
٦٢	الوعد
٦٤	إله القوة والمعجزة
٦٦	النتائج التاريخية لأسطورة «الشعب المختار»
٧١	- الفصل الثانى: مسيح بولس ليس هو يسوع (عيسى)
٧٥	القديس بولس والتراجع
٨٠	يسوع يكشف الرب المحتجب فيجعله منظوراً
٩٣	من القديس بولس إلى نيقية (عام ٣٢٥)
٩٧	المذهب القسطنطينى
١٠٠	مجمع نيقية: مولد لاهوت السيطرة
١٠٥	مسيح بولس ليس هو يسوع
		الكنيسة تعتق ديانة الإمبراطورية الرومانية: الديانة اليهودية
١٠٧	المسيحية

١١١ الرومنة بعد التهويد والهلننة
١١٣ - الفصل الثالث: نشأة المتوحشين
	من مسلمة آدم سميث وحتى توحيد السوق (الفلسفة
١٣٥ الإنجليزية)
١٤٢ من مسلمة ديكارت وحتى عصر الحاسب الآلى
١٤٩ من مسلمة فاوست إلى عالم اللامعنى
١٥٠ آخر خرسان الفكر: فيخت وهيجل
١٥٣ عالم بلا بشر: أوجست كونت والفلسفة الوضعية

رقم الايداع: ٢٨٢٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977- 09-1054-6

هذا الكتاب

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بدأ الغرب (الولايات المتحدة وبريطانيا وحلف الأطلسي) وإسرائيل والصهيونية العالمية حملة تشهير عالمية متعددة المستويات والمجالات والأساليب ضد الإسلام والمسلمين باعتبارهم العدو الجديد للحضارة الغربية...

بالطبع كنا - شعوبًا وحكامًا - في غفلة تامة عن ذلك...

واليوم بلغت الحملة مبلغها عسكريًا وسياسيًا وثقافيًا. وكل ما نفعله الآن محاولات متقطعة لنفي الإرهاب عن الإسلام. مع استغلال بعض حكومات الشرق الأوسط تلك الحملة العالمية لزيادة القمع والبطش ضد المعارضة بزعم محاربة الإرهاب.

و/أو مساندة الحملة الغربية على الإرهاب. مع أن التعريف الأمريكي للإرهاب -

كما يتن تشومسكي نصح عدة مرات في عدة كتب مثل: "أوهام الشرق الأوسط"

- "السيطرة على الإعلام" - "9/11" - ... ينطبق تمام الانطباق على مثل هذه

السياسة الخارجية الأمريكية والإسرائيلية. ولكن لا جبرؤ حتى على التماس

بذلك.

في هذا الكتاب يستعرض جارودي - وهو في العقد الخامس من

عمره، ويعيش في باريس - تاريخ الإرهاب الغربي...

ويستخرج الأسس التي عليها قام الإرهاب. وانتكار الأمر

واستعباده واستئصاله إذا لزم الأمر.



6 223002 800834